رسائل إلى هيلين

سلام عابدين

أسنّة الضياء

رسائل إلى هيلين

سلام عابدين

أسنّة الضياء

الفهرس

كلمة لا بد منها 8

مقدمة المؤلفة 14

الرسالة الأولى 20

الرسالة الثانية 21

الرسالة الثالثة 23

الرسالة الرابعة 25

الرسالة الخامسة 27

الرسالة السادسة 29

الرسالة السابعة 30

الرسالة الثامنة 31

الرسالة التاسعة 33

الرسالة العاشرة 35

الرسالة الحادية عشرة 38

الرسالة الثانية عشرة 39

الرسالة الثالثة عشرة 41

الرسالة الرابعة عشرة 43

الرسالة الخامسة عشرة 45

الرسالة السادسة عشرة 48

الرسالة السابعة عشرة 49

الرسالة الثامنة عشرة 51

الرسالة التاسعة عشرة 53
الرسالة العشرون 55
الرسالة الحادية والعشرون 57
الرسالة الثانية والعشرون 59
الرسالة الثالثة والعشرون 61
الرسالة الرابعة والعشرون 63
الرسالة الخامسة والعشرون 66
الرسالة السادسة والعشرون 68
الرسالة السابعة والعشرون 70
الرسالة الثامنة والعشرون 72
الرسالة التاسعة والعشرون 74
الرسالة الثلاثون 76
الرسالة الحادية والثلاثون 78
الرسالة الثانية والثلاثون 80
الرسالة الثالثة والثلاثون 82
الرسالة الرابعة والثلاثون 84
الرسالة الخامسة والثلاثون 86
الرسالة السادسة والثلاثون 87
الرسالة السابعة والثلاثون 88
الرسالة الثامنة والثلاثون 89
الرسالة التاسعة والثلاثون 90
الرسالة الأربعون 91
الرسالة الحادية والأربعون 92

الرسالة الثانية والأربعون 93
الرسالة الثالثة والأربعون 94
الرسالة الرابعة والأربعون 95
الرسالة الخامسة والأربعون 97
الرسالة السادسة والأربعون 98
الرسالة السابعة والأربعون 99
الرسالة الثامنة والأربعون 102
الرسالة التاسعة والأربعون 104
الرسالة الخمسون 106
الرسالة الحادية والخمسون 108
الرسالة الثانية والخمسون 109
الرسالة الثالثة والخمسون 110
الرسالة الرابعة والخمسون 113
الرسالة الخامسة والخمسون 115
الرسالة السادسة والخمسون 117
الرسالة السابعة والخمسون 119
الرسالة الثامنة والخمسون 121
الرسالة التاسعة والخمسون 123
الرسالة الستون 125
الرسالة الواحدة والستون 127
الرسالة الثانية والستون 129
الرسالة الثالثة والستون 130
الرسالة الرابعة والستون 132

الرسالة الخامسة والستون 134
الرسالة السادسة والستون 135
الرسالة السابعة والستون 137
الرسالة الثامنة والستون 140
الرسالة التاسعة والستون..... 142
الرسالة السبعون..... 144
الرسالة الواحدة والسبعون 146
الرسالة الثانية والسبعون 148
الرسالة الثالثة والسبعون..... 150
الرسالة الرابعة والسبعون 152
الرسالة الخامسة والسبعون..... 153
الرسالة السادسة والسبعون 155
السابعة والسبعون 158
الرسالة الثامنة والسبعون 160

كلمة لا بد منها

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي جعل الكلمة الصادقة حياةً للقلوب، ونورًا للعقول، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، أصدق من نطق بالحق، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد،

فليست كل كتابةٍ تُقرأ، ولا كل عبارةٍ تُلامس القلب؛ إذ بين الكلمات التي تُنسج لتُقال، والكلمات التي تخرج من أعماق الشعور لتستقر في الأرواح، مسافةٌ لا يقطعها إلا الصدق.

ومن هذا الباب جاءت كتابات الفاضلة سلام عابدين؛ فإنها لا تُكثر من الزخرف اللفظي بقدر ما تُحسن مخاطبة النفس، ولا تتكلف الإثارة بقدر ما تتقرب إلى القلوب بالرقة، والرفق، وحسن الالتقاط للمشاعر الإنسانية. ولعل أجمل ما يميز قلمها أنه لا يعلو على القارئ، ولا يفرض عليه أحكامه، وإنما يجلس إلى جواره، يصغي إليه، ثم يهمس له بما يفتح باب التأمل، ويوقظ فيه المعاني التي ربما غابت عنه.

وقد بدا ذلك واضحًا في أول كتاب لها بين أيدينا: «رسائل إلى هيلين»؛ الكتاب الذي اختارت فيه أسلوب الرسائل، فنسجت منه صفحاتٍ تمزج بين المشاعر الصادقة، والنصح الرقيق، والتوصيات الهادئة، حتى بدا للقارئ وكأنه يقرأ حديثًا يخصه وحده، وإن كان موجَّهًا إلى "هيلين". فكانت الرسائل جسورًا تعبر بها الكاتبة إلى النفس الإنسانية، تستنهض فيها مكامن الخير، وتداوي شيئًا من تعبها، دون وعظٍ جاف، أو خطابٍ متعالٍ.

منذ اللحظة الأولى التي طالعت فيها كتابات سلام عابدين، أيقنت أنني أمام قلمٍ يجب أن يواصل الكتابة؛ لأنه قلمٌ يملك نعمة الإحساس؛ ذلك الإحساس الذي يمنح الكلمة دفئها، ويمنح العبارة صدقها، ويمنح النص حياته. لقد رأيت خلف سطور سلام كاتبة تحمل موهبة ورسالة وقدرة على الإمساك بخيوط المشاعر الدقيقة وصياغتها في لغة مؤثرة تسير بالقلب إلى الله عز وجل.

وما يلفت النظر في كتاباتها أنها تمتلك حسًّا مرهفًا في التقاط دقائق النفس، وتعبِّر عنها بلغةٍ عذبة، وأسلوبٍ رشيق، يأنس به القارئ ولا يمله، ويجد فيه مساحةً للتفكر أكثر من مساحة الجدل. وهذه خصلةٌ قلَّما تجتمع مع سلامة العبارة، وجمال السبك، إلا عند من جعل الكتابة رسالةً قبل أن يجعلها صناعة، وكانت الكتابةُ جزءًا من فطرته.

وهذا الكتاب امتدادٌ لذلك المسار، يؤكد أن الكاتبة لا تبحث عن كثرة الكلام، وإنما عن أثره، ولا عن بهرجة الأسلوب، وإنما عن صدقه. وإن القارئ سيجد فيه روحًا تعرف كيف تخاطب الإنسان من حيث هو إنسان، وتضع بين يديه من الخواطر والنصائح ما يدعوه إلى مراجعة نفسه، والارتقاء بها، في لغةٍ شفافةٍ وأسلوبٍ يفيض رقةً وجمالًا.

أسأل الله أن يبارك في قلم سلام عابدين، وأن يجعل ما تكتبه نافعًا، وأن يرزقها دوام الإخلاص والتوفيق، وأن ينفع بهذا الكتاب كل من تقع عيناه على صفحاته، وأن يستعملها ولا يستبدلها، إنه ولي ذلك والقادر عليه. والله ولي التوفيق.

ليلى حمدان

؛

"تبحثين عن النور لأنك تكرهين الظلمة، تمشين بقلب يألفُ الجمال ويتّسع للمتعبين!".

"تحت أجنحتكِ قلبٌ دافئ، تحفّه الدعوات، وترعاه رحمة الله، تتحسسينه بين الفينةِ والأخرى خوفًا أن تنبتَ فيه الأشواك، وكل شيء يدعوه لذلك".

"لا يخيفكِ الغياب، كالطير حرٌّ في سمائه!".

"نبلكِ يحمّلكِ مسؤولية الإعتناء بقلبين كأنهما في جوفكِ، لذلك لا تتعبكِ الوحدة، قوتك مفتونة برهافتكِ، ورهافتكِ محميّة بها، لا تسقط دموعكِ عبثًا! لأن المعنى موصولٌ بكِ، وكما قيل «الحسن في الزمن الحزين مقاومة»".

"ما أعجبك أيتها الحياة، وما أعجب نفسي أمام رسائلك المتجددة، بيننا سرٌّ عميق، تعرفه السّماء، والبحر البعيد، وغفوة الشمس، ونسائم الفصول، تحمله الطيور، وتتفتّح على نداهُ الزهور، وتراه الفراشات من قلبٍ مرئي وتبتسم".

"فتاةٌ يحييها الجمال، ويلاطفها الوجود؛ ليرضيها تكفيها لوحة فاتنة من اندماجِ الشمسِ بالطبيعة، وحشراتٍ يتراقصن على نغمةِ الكون، تود أن تكونَ للشمسِ مشرقًا، وألا يكون للخيرِ مغيب، تنتظر مرور الشتاء لتقول للفراشة: «حاولتُ أن أكون خفيفة مثلكِ".

؛

مقدمة المؤلفة

بسم ربِّ الخير، ومسخِّر الأسباب، وباذل الكرم، الذي ألهمني الكتابة على ضفافِ المعنى، وأقامني حين تعثرتُ، وأعادني حينَ ابتعدتُ، وأخذ بيميني إلى النورِ حين كانت الظلمة تحتال على قلبي لِتسكُنَه.

منذ سنين خرجتُ إلى هذهِ الدنيا ودخلتُ معركتها.

كنتُ أتساءل عن كلِّ شيء، وأتوه بينَ إشاراتِ استفهامٍ كبيرة حول الحياة وقسوتها، حتى حلَّ اليأس في قلبي، فكأنني من فرطه اندثرتُ في كل مكان، لكنني أبصرتُ آخر أملٍ يقاوم الفناء، فذُهلتُ طويلًا.

تلمستُ معنىً فريدًا وُلد في تلك اللحظة، وأدركتُ أن الرحلة لم تكن سيئة كما ظننت؛ لأنَّ في داخلي شيئًا لم يهلك.

كانت قطرةُ النّدى كافيةً لبرعمٍ صغيرٍ، لا يُرجى منه أمل، ومع ذلك آمنتُ بأشدِّ الأمور استحالةً، شأنَ المتعلِّق بقشّةٍ في محيطٍ هائج.

وكان ضوءُ القمر يترك على روحي بريقًا أستأنس به في لياليَّ الباردة، ثم تأتي الشمس بعده لتتلو عليَّ معجزات ربّي.

أُعميتُ عن المعنى زمنًا، وغفلتُ عن السماء بوصفها موطنًا آمنًا، فما وجدتُ وصفًا أقرب إلى حالي من قول الشاعر: «روحي بقايا سماءٍ أُسكنت جسدًا».

ومنذ ذلك الوقت إلى اليوم، وأنا أسعى في مناكب الأرض.

كفرتُ باليأس، وبتُّ أحرص على التفكر الذي يولِّد المعاني لألمسها بأنامل قلبي.

وكتبتُ عهدًا على صفحة السماء أن أجعل نجاتي مركبًا، وأن أمدَّ يدي لكلِّ يائسٍ أو محزون.

الآن أعرف دفيئة براعمي، ومسكن طمأنينتي، ووجهة الطريق إليه.

«ولم تزل للسماء الروحُ تدعوني».

لقد رأيت على ضفافِ الشعور قلوبًا ييبس ربيعها، فدعوتُ ألّا أذوق العلقم، وألّا أرى قلبي نازفًا وشعوري باهتًا!

أيتها الطمأنينة!

صاحبيني بقية الرحلة؛ لأنني لا أريد إيقافها، ولا التأسف على الأيام العصيّة، ولا حبس قلبي خلف قضبان الظلام، أريد العيش تحت ظل الرحمة، والسكن في بساتين المعنى، والاختباء من كل أذيّةٍ لا تهبني رسالة، أما هذه الرسائل التي بين يديك، فليسَتْ رسائلًا أدبيةً وحسب، بل هي معانٍ ناجيةٌ من الظلام.

كان طريقها طويلًا وشائكًا، ولولا أن الله أسبغ عليها من رحمته ما أسبغ، لما خُطَّت في هذا الكتاب، ولابتلعها الزمان في قلبٍ ميت.

فالحمد لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وله الفضل في البدء والمنتهى.

أهدي هذا الكتاب لعائلتي فردًا فردًا، التي كانت لي حصنًا منيعًا أمام هذه الدنيا، بحبهم الغير مشروط وعطفهم الكريم.

إلى أمي وأبي، إلى الأصلِ الذي نبتُّ منه، فكل خير وجميل عائِد لله ثم إليكما، ممتنة على الحب الذي أتنعمُ فيهِ بينكما، وعلى كلِّ تضحية بذلتماها في سبيلي، وعلى هذهِ العناية التي حاوطتما قلبي بها، ممتنة لكلِّ دعاء خفي صعدَ للهِ بإسمي، لقد كنت أراه في خطواتي، وأشعر بدفئه في أيامي الباردة، الكلام لا يُجزئ، فجزاكما الله عني كل خير.

إخوتي الذين تعلمت معهم معنى الأخوة بكل ما تحويه الكلمة من معان عميقة وسامية، كنتم كشجرة وارفة لا تبدّلها الفصول، شكرًا لوجودكم ولدعمكم ولصدق حبكم، وإنه يكفيني من نعيم الدنيا بقاؤكم قربي (بيان،نور، ماريا، اسماعيل)

إلى الدكتورة ليلى حمدان، ذي الروح المحلّقة، لقد غرسَتْ في نفسي يقينًا، بأن السعي لا يضيع، وتشجيعًا بأنَّ الروح المحلّقة هي روح الكاتِب المؤمن، وبأّنني أملكها، وأرتني على الدوام أنَّها بجانبي فصدقت وأوفت.

أعلم أنّك لا تبتغين الجزاء ولا الشكور، غير أن الجميل يُحكى والمعروف لا يُسدَّد وجزاء الله خير من جزائنا بوركتِ وأدامكِ الله من نعمة.

لصديقتي نسمة، البعيدةُ القريبة، التي أقصدها في رسائلي، رغم أننا لم نلتقِ يومًا غير أن لك حبًّا عميقًا في قلبي رغم ما بيننا من حدود، صديقتي التي آمنت بي وأمسكتْ بيدي حتّى في أيام الحرب الشديدة، للمرةِ الأولى، الياسمينة والأقحوانة تخرجانِ للعالم، الآن أثبت لكِ أن الدموع قد تكون سقاءً للزرع.

لصديقتي لبابة، التي شاركتني الحياة منذ الطفولة، وعايشنا العثرات والنجاحات معًا، التي لم تبخل علي يومًا بمدِ يد المساعدة، ممتنة لأنكِ أنتِ لا أحد غيرك.

«يعنيني الأمل، نبتة السماء الممتدة على سقيفةِ قلبي، أمشي في الأرضِ وقلبي يا خالقي يتوقُ إليك، لسماءٍ رحبةٍ أفرد جناحاي فيها، أعلم أن الرحلة مكلفة، والثقل لا تطيقهُ القلوبُ الهشة وأنت تختارُ من تريد لتهبه تلك القوة، لا أليق بها لكنّني أحتاجها، أنا وحرفي نرتجفُ على بابك، لأن الدُّنيا ياربّي تزدادُ قسوة، والركبُ سبقني، ولأن الصدق منجاة فأنا أقصده.

ياربّي، بئس العبدُ أنا ونعم الرب أنت، احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، وفي الجنّة ابنِ لي عندك بيتًا في الجنّة!

سبحانك، أجولُ تحت سمائك، أعيشُ بنعمك، وأنعمُ بفضلك وأحمدكَ بصفتي أمة فقيرة، لا تملكُ إلّا محاولاتها المرقّعة، أقول أن المجاهدة صعبة، والسير ثقيل، وتنقية النفس من شوائب الدنيا لمهمّة شاقّة.

أنظرُ للسماءِ، أريد المدد، وأبتغي للروحِ مستراحًا، في يدي بذورٌ لم يحن موعد زرعها، ولكنّها سرعان ما تنفرط بالتعثّر، سبحانك،جرح الطريقِ لا شرخ البعد عنك.

بي حنينٌ غير معرّف، يخبرني أن القلبَ في عناءٍ طويل، لا يرتاح إلا بالوصول، الأسباب تخبرني أن الوصول محال، وتهبني يقينًا يغلب المعادلة ويعيدُ ترتيبها، آمنتُ بك ورضيت، فهلّا رضيتَ عنّي؟!

ربّي، يا أنيس من استوحش، كيف لقلبٍ فُطرَ على حبّكَ واهتدى لبيتِ أمنهِ أن يُفرّط، ما أعجب من استبدلَ النعيم بالعذاب، ما أضيق الأرضَ على من كانت منتهى آماله، وما أضنكَ السيرَ على من تمرّغَ بعصيانك، وما أفسد اللحظة على من لم يسخّرها لكَ ولأجلك، ما أوسعَ الأمل في رحابك، وما أرق اللحظة عند بابك، ما أهنأ العيش في رضاكَ وما ألذ المجاهدة في سبيلِكَ، وما أقرب العبد في طاعتكَ لقلبه.

ربّي، الرحلةُ قصيرة، والأيام تُطوى على عجالةٍ، والوحدةُ لا تُرجى على من فقهَ ضعف نفسه، آنسنا بكَ لنؤنس غيرنا، وعلّمنا الحب لنبذله بأسمى معانيه، ووسع قلوبنا لتسعَ خاصّة عبادك، وافرش لنا السكينة وحاوطنا بلطفك، وأضِئ مصباحنا لنهتدي في الظلمات، فلا نتعثر ولا ترتجف قلوبنا خوفًا!

فإنَّ صلاتنا ونسكنا ومحيانا ومماتنا لك وحدك.

سبحانك، أسيرُ بقلبٍ خفّاق، تارة تثقله الدُّنيا فلا يُبصر الآفاق، وتارة يخفقُ بخفّته كالطير، قدماي على الأرض، أشربُ من مائِها وآكل من ثمارها بصفتي إنسانًا ضعيفًا، هذا ما تخبرني إياه الدُّنيا كل يوم، مهما أوتي الإنسان من قوّة يا خالقي، تكسر النسائم أغصانه الغضّة، غير أنّك لطيفٌ بعبادك، تهبهم القوة درعًا للهزيمة، الخير مردود إليك، والمدد فضل منك، والإستحقاق بعيد عنّا.

يا خالقي، أمدُّ قلبي لتمسكه عن الشر، وتهديه لمنازلِ الآمنين، وترفّعه عن الدنيا وأمراضها وتُريه كرامات الصفاء، فما أشقاني حين ينتهي الطريق الموصل إليك دون قلب حيّ.

يا خالقي، الطريق قد يطول، وقد يفقد الإنسان أكثر مما يحوز، لكن أن يفقد قلبه فأنّى لهُ أن يكمل؟ وأي شقاء يصيبه حين يُحرم منه؟ هذا خوفٌ يطاردني، أن أعيش دون قلبٍ حيّ، يجري فيهِ المعنى، ويبتسم في رياضِ الحب، ويبذل منه بما أنعمت به عليه، قد يكون القلب في قفصِه، لكن أجنحته تخفقُ في معارجِ رحمتك، هذا نعيمٌ معجّل، أريدهُ قبل أيِّ مطلب دنيوي، وأدري أنّي لاهية عن بذل سبب القرب، فهلّا أشفقتَ على أَمَة محبّة؟

الرسالة الأولى

يكتبُ الإنسان يا هيلين، مع أنه يدرك يقينا أن الرسائل ستضل عنوانها أو ستضيع في الحقيبة المكدّسة أو أنها ستؤرق فيه الذكرى. الإنسان يا هيلين، متعبٌ من ثقل الكلمات داخله، وخوفه أن يلج باباً خاطئاً يدفعهُ للوراء، ما أثقل الأيام على شخص يتساءل: «متى سيحط حقائبه أخيراً آمناً مستريحاً من عناء الرحلة؟»

لقد تعاهدنا على السيرِ معًا، وأن نسقي الزرع، ونقتطف المعاني في مساعينا، أن نمد يدنا للمحزونين، وأن نضمد الجرحى، وألا نسلّم أرواحنا لليأس، وأن نحاول.

هاتِ يدكِ إن كانت وجهتكِ السماء!

الرسالة الثانية

الليالي يا هيلين، لا تشبه الليالي العادية، التي تمر خفيفة بلا أجراس قلقٍ وخوف تُقرع، شيءٌ ما يتغيّر من جذوره العميقة، على كتف هذه الأمّة سينبت جناحان، ولا نعلم كم سيبقى النزيف مستمرًا.

أنظرُ للعالم من عينٍ أخرى، وأقول ما أقساكْ!

الإنسان في الحروب يا هيلين يصبح خائفا على أحلامه ألا يلتقيها، وأن ينتهي الطريق قبل أن يبدأ، أو أن يذهب قبل أن يرى انتصاره، بل يقلق لفكرة أن تتصالح أمانيه مع الواقع، في وقتٍ متأخر حيث لا يكون موجودًا... هل يزهد الإنسان يا هيلين؟

زهدًا لا يتعارض مع السعي لكنه يتعارض مع حب الدنيا؟!

شهد الإنسان كيف ينسلُّ عمره كحبات الرمال، وكيف تباغته الدنيا، شهد الآلام والفواجع، وبكى حتى جفّت مآقيه، واعجبًا من الإنسان بمَ يتشبث؟ أليست كل المحن تقول للإنسان أنا مواساتك؟ لأنني لست دائمة، وقتي قصير وجزاء من صبر عليَّ عظيم، وأنّه لولاي لقيدتك زينة الدنيا وانغمرت في لججها، هل تعاتب المحن الإنسان بقولها: «لم تنتظرني لأرتب لك قلبك؟»

أنظر لكل شيء حولي كما لو أنها نظرة أخيرة، بلدتي، الأشجار، الوجوه، وقلبي، البلادُ المجاورةُ التي تنزفُ، ويُقتَلُ سكّانُها، وتتجرّعُ علقمَ الفواجعِ، تصرخُ بصوتٍ عالٍ: «لا تأمَنْ عواديَ الدهرِ».

هيلين يا عزيزتي، عتبت على الدنيا وهان عليَّ الزمان وأهله كما الشاعر، لم لا نجاهد لقلبٍ سماويّ؟ يقولون: «أن الدنيا مغرية»، لكن كيف لقلب كُشفت له حقيقتها أن يخضع لإغرائها دونَ مجاهدتها؟ الحقيقة التي لا تُعمل يا هيلين؛ نقمة على صاحبها، فما فائدة أن يجمع الإنسان الحقائق وعمله عمل الجاهلين؟ بل كيف لو كانت تلك الحقائق ستحدد مصيره الأبدي؟

المجاهدة شاقّة يا هيلين، وحمل الحقائق ثقيل، ولا يحظى باهتداءِ السبيل وجزاء المشقّة سوى عبدٍ صدق في حبّه، وأقام قلبه لله، لا يعمل إلا لأجله، ولا يتوجه إلا إليه.

هذا السير يخلق للعبد أشجارًا من السكينة يستظل تحتها، وكما قلت لكِ سابقًا «أحب أن يصاحبني الأمل حتى لا يتجرأ اليأس أن يعبث بي» فهل تصالحتِ معه؟ أخبريني كل ليلةٍ أنكِ بخير.

الرسالة الثالثة

أيا هيلين، في ظلمة الليلِ الحالك معنى وصورة، وفي قيعان أفكاري التي ترتطم فوق بعضها، وفي صوتِ الأنين الذي يتردّدُ في أذني أميل بطرفي للسماءِ فيتلألأ القمر في عيناي، ليست صورة اعتيادية، بل رسالة أعرف وقعها، في سماءٍ مكفهرّة قمرٌ منير!

أليس هذا آية من آيات الله الحيّة التي لا تنضب المعاني فيها؟!

أيا هيلين، الاختبار يزداد صعوبة، والآلام تزداد تفجّعًا، ولكن في الخراب هذا قبس نور، وإن ما يواسيني ويحبب إليَّ أننا على ذات الأرض نتتبع أثره سوية، آمل ألا تفقد قلوبنا هذا الأثر، وألا ينفد زيت قنديلنا منتصف الطريق، وألا نتوه كما تاه من كان قبلنا.

أليس غنيمة للإنسان يا هيلين أن يكون مع رفيق يقطع معه هذه الدنيا؟ يكون معينًا له إن أخطأ، ومرشدًا له إن حاد، ويدًا حانية إن تعب وتوقف.

الليالي أصبحت باردة، ولكنني لا زلتُ هنا، تحت القمر، ألتحفُ الأمل وأتفقد الجوار لأطمئن أن اليأس لم ينسج بيوتًا، وأقول لكِ من مكانٍ قصيّ، هل صوت قلبي واصل إليكِ؟

يعزُّ عليّ أن رسائلنا بالكاد تصل، وأن أكبر رسالةٍ هي جرعة اطمئنان تختلس من الحرب، ابقي هنا يا هيلين، لا يكون البعد مرتين!

يالـلـدنيا مـا أنكـدَ عيشـها دون الله، ومـا أقـدس معانيهـا بالقـربِ منـه، عهـدنا الدعاء، الأرض تضيق ومتّسعنا السماء.

في أمان ربّي، حفّتكِ رحمته، وحفظتكِ معيّته، وآواكِ ركنه.

الرسالة الرابعة

عاد المطر...

هل تضطرب صورة الجمال لتَخوفنا منها يا هيلين؟

حين خلق الله الأرض وأراد أن يجعل فيها خليفة أول ما قالته الملائكة لله "قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا".

يشوّه الإنسان بذنوبه، وفسقه، وكفره، مالا تشوهه البهائم في مستعمراتها! لقد بات المطرُ يخوّفني من عقوبة تعمنا، أقول: «يا رب، سقيا رحمة لا سقيا عذاب».

دموع المظلومين، والمقهورين التي ذرفت، هل تتجمع وتتكاثف بغيوم داكنة؟ والرعد الذي يخوّف الملائكة من ربها، أليس الأَولى أن يرتعب فيها العاصي والمفرط؟

مالم يحرك القلوب خوف الله كيف تحركه صرخة ثكلى؟

المطر حبيبٌ منتظرٌ بشوق عاشقة، نشاركه حكايا قلوبنا وحديث خواطرنا وخبيئة أسرارنا، كيف نخافه يا هيلين؟ ليس المطر بل الذنوب التي تستجلب الغضب.

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ولا أتخيّله إلا كهلاكٍ صنعناه بأيدينا وغذيناه بمعاصينا، وهو إشارة ورسالة، وتحدٍ!

أخذ بيميننا إليه، ولا تركنا لظلمة الدنيا وعذابها.

الرسالة الخامسة

ليلة مطمئنة، آمل أن تكوني بخير..

الجو ماطر، والبرقُ يضيء كأنه يبرق بقلبي، أزيح ستار النافذة فيصدمني أنين من قلبي يخبرني: «أهلكِ في العراء»

لم يعد شيء كما كان يا هيلين، أعلم أن الإنسان يستطيع أن يتحكم في تفكيره، لكن كيف يمسك قلبه عن النيرانِ الموقدة من الفواجع المُشاهدة؟ شيء في داخلي لم يجف ولو جففت هذه الرياح دمعي.

الآن كنت أفكر في أن البذورَ التي غرسناها بزهد كيف أصبحت؟

هل نبتت؟

كأن الأمل يمد لي يده مجدداً ويخبرني أن الحزن لم يكن يومًا مثبطًا عن المضي. أشعر أن أفكاري تهرب من كل صوب،و كأن أداة ترجمة الشعور عطّلت، لا أدري هل التعب يستنزفني أم أن عدم إفراغي لها يتعبني؟

يُقال يا هيلين: «أن الشجرة التي تصمد في وجه الرياح تعلم أن الربيع على الأبواب».

الأيام لا تطول إلا بالمحن يا هيلين ولا تقصر إلا بالسعادات، غير أننا في كلا الحالتين نتفاجأ حين الإجتياز أن الأيام ركضت، أرأيتِ؟، الفرق هنا النهاية،

النهايات دائمًا تختصر الزمان بشيء علق بالذاكرة، أترى سيعلق بذاكرتنا أكثر مما حسبنا؟

تأخر الوقت، وكما تعلمين فالدوام يلاحقني، والعمل صباحًا مرهق يا هيلين، إلا أنّ الصباح يبتسم بوجهي ولم يبخل مرّة في إيناسي، الأشجار المبللة بالندى، والهواء البارد، وزقزقة العصافير التي تسبّح بحمد ربها، كل تفصيل يا هيلين يُذكّرك بلذّة العبودية.

حين وصولي يتشاجر الطلاب لحضن دافئ وليحملوا أغراضي، ليتهم يحملون قلبي الذي بين جوانحي، ليس ثقيلًا بالمصائب بل بالحزن يا هيلين، الحزن وحده! أخشى أن يغفلني هذا الحزن عن النعم المساقة لي من رب كريم، إذ أنه مالم يكن سلّمًا لقطف معنى كان دركة لقتل آخر، أحب عبادة الإمتنان، يجب أن نمتن حتى على الحزن أليس كذلك؟

المطر بدأ يتساقط، هذا حديث عهد بربه، يالسماء، تهبني منديلًا لمسح الدموع والتنفس بعمق.. ليلة مطمئنة مجددًا خالية من الأرق.

الرسالة السادسة

هيلين يا عزيزتي، أجرُّ حرفي لأرميه عنّي، فالحزن لم يترك في قلبي خفقة لشيء آخر، كلّما اقتربت من الإفتتان بالسعادة أذبل حتى أكاد أيبس، يا عزيزتي هيلين، كنت رفيقة الأمل ولا أزال، هذا عهدي القائم الذي يشدّ عليَّ حتى أُدمى، قيل لي: «كأنكِ في معركة قائمة تريدين كسب الأمل بأية طريقة». أريد هذا فما حيلة المعروضِ على الحزن؟

أصبحت أكثر تخوّفًا من كل شيء يقترب، ليس الخوف المكبِّل، لكنه الخوف الذي يسلب منكِ رفاهية التوقف لتخرجي غصّتكِ العالقة.

أخشى أن أفقد لهفتي لخفقةٍ كانت تتراقص تحت ضوء القمر، أو أن أسير بقلبٍ مغمض، أو أن تسلبني الأيام شتائل الزهور في قلبي أو أن أُشيح نظري عن الجمال، أينما ولّيت وجهي رأيت، رأيتُ الذي لايُشرح، أشبه بالفجيعة لكنها صامتة، تتأوه بليلٍ خفيّ، لا يصل بوحها سوى للسماء.

أمشي كعادتي للشرفة، الجو يزداد برودة، والنجوم متلألئة، كعادتها، سكون الليل له صخب، صخب لا يُسمع لكنّه ينخر الرأس!

مالنا وللدنيا يا هيلين... كل هذا إلى زوال، عهدنا أن نمضي، وأن نسأل عن بعضنا على أبواب الأبدية، فإن نجت إحدانا تقول لله: «وصاحبتي».

الرسالة السابعة

كأن ساعي البريد ينتظرني في الخارج، أفتح باب الشرفة وأنظر للسماء، لا نجوم، برقٌ ورياح، طرق الأرض مغلقة، وطرق السماء مفتوحة، هذا ما أعزّي نفسي به يا هيلين، أرسل لكِ من خلالها أدعية دافئة، بمثابةِ وشاح، اؤمن أنَّ هناك وشاحًا للروح، وأن الأدعية تصل بطريقةٍ يختارها الله.

في قلبي يا هيلين، لا أملك مدفأة، لكن حزنًا كان مشتعلًا لم ينطفئ، يجعل قلبي دافئا هكذا، هيلين، أعلم أن الخوف يؤرقكِ، وأن البوح يُستعصى على الترتيب، وأدرك جيدًا معنى أن يُلجم المرء أمام الفواجع، يا عزيزتي لو بقيت أمد الدهر صامتة لبقيت أمد الدهر أعزّي صمتك، فالصمتُ هو عزاء حزين لما فقدنا داخلًا.. نجابه كلّنا حقيقة الدنيا، غير أننا نتفاوت في الشدّة، أنت في المقدمة، هلّا بادلنا؟

ليس لأنني أقوى على تحمّل الحاصل، بل لأنني أريدكِ ولو لمرّة أن تغفي بسلام... عزيزتي هيلين، المطر بدأ يتساقط، لا أراه إلا دموعًا.

ياللغيوم، هلّا أرسلتِ البريد دون أن يبتل؟

صديقتكِ التي تفتقدكِ جدّاً "سلام".

الرسالة الثامنة

"أغدًا ألقاكَ؟

يا خوفَ فؤادِي مِنْ غَدِ".

الغد يا هيلين، قد لا يحمل اللقاء، قد يكون هذا هو المنطق الذي تعطيه الدنيا لشخصٍ ذي حسٍّ رهيف، وخيالٍ فسيح؛ ليقف قليلًا ويستوعب أن عليه تخبئة زوائد حسّه في قفص جوانحه، وأن الدنيا لا تلمع بسحرِ الرّهافة بقدر ما تستقيم بمنطق العاقلين... هناك خاطرة حزينة لأحدهم يقول فيها: «لقد خفتُ أن يغتالني الموتُ عنوة وفي النفسِ حاجاتٌ إليكِ كما هي».

لا أدري أي شعور آل لنسج هذه الخاطرة الخائفة؟!

غير أنني أعلم شيئًا واحدًا... أن هناك رغبة للقاء وتدافع من الدنيا لمنعه، وما الغريب؟ أن يرحل الإنسان وفي قلبه أحاديث لم تروَ، وأحداث ود لو يشهدها، ومشاعر لم يجد أرضها، أليس قاسيًا أن يعرض الإنسان حسّه على هذه الحقائق الثقيلة يا هيلين؟

قال راحلٌ قبيل رحيله لصاحبه: «الأمل موجع ياصاحبي».

أي كم هائل من الأمل يحمله الإنسان ليوجعه هكذا؟

قد يمضي الإنسان بالأمل يا هيلين، يريد أن يكون معنى الأمل هو الوصول، وهذا يثقله، ذلك لأن الأمل تسلية الإنسان في رحلته لا نقطة الوصول، يُظلم

الأمل كثيرًا في وضعه بغير تعريفه، فحين لا يحقّق الإنسان آماله المادية يطرده من قلبه كأنّه مبعوث كأداة سحرية لتحقيقِ الأمنيات، فيُنزع ويبدل باليأسِ بل قد يؤدي بالإنسان لمهالك الضلال.

الأمل مطلوب يا هيلين حين يرتبط بإشاراتِ السماء، وريثما قيّدوه بالدنيا سيلهيهم عن السعي والتطلّع للآخرة.

قد يصعب على الإنسانِ أن يوازن بين أمله وسعيه، وزهده المحمود وعدم يأسه، لكن الذي يسترشدُ بالوحي، هل يتوه يا هيلين؟

لا تفقدي الأمل لتشوّه معناه عند بعض النّاس، ولا تقبلي أن تكوني أسيرة لليأس، وسلي الله أفضل الطرق وأسمى المعاني حتى تصلي إليه.

الرسالة التاسعة

هيلين يا عزيزتي، الآن أعود رويدًا بعد أن فرَّ قلبي ولحقته لجلالةِ التكبيرات التي زلزلت الدنيا بسقوط المجرم، كان فجرًا فريدًا لم أشهد مثله قط، عقلي مشوشٌ، ولا أزال في ذهول، يا هيلين، الأحلام لم تكن بأجمل من الواقع، كنّا نسلّي أنفسنا بالخيال لأن أيدينا كانت أقصر من أن تطال أحلامًا خيالية، الآن وقد أرانا الله تحققها وأخذ بيميننا لنشهد هذا النّصر، يتراءى الأمل حاملًا معناه المتلألئ، كأنه خارج من معركة مع اليأس ليقول لي: «أتعبتكِ، ولكن هل خذلتكِ؟».

أقول بصوت مرتجف: «الأمل!».

أبكي يا هيلين، هذه المرّة فرحًا، هذه أفصح إجابة للأمل، كم حديثًا أوصده الخوف ياهيلين؟

وكم وددت أن أفضي إليك بشرارة قلبي؟

ولكن أعين الوحش علينا!

كم أجلت من أحاديث وددت بوحها، وكم من حكايا طويتها بجملة: «حين نلتقي أخبركِ»، كم أملًا كنّا نحمل داخلنا؟!

لا تفقدي الأمل يا هيلين، لا يشعر الإنسان بلذّة الانتصار مالم يكن طوال الدرب مؤمنًا بأن النهاية ستكون عاقبتها خير، مالم تسقي الأمل لا يهبكِ ثمرته.

الطائر الذي يرى السماء الفسيحة وأسراب الطيور فيها، أيختار القفص؟ هذه هي الحريّة التي كنّا نريدها؛ لنصدح بكلمة الله ونزلزل عروش الطغاة بها... ذاك اليوم يا هيلين، أُشرق فيه النّصر مع لحظات الفجر الأولى، وسجود شكر بين يدي الوهاب، وتكبيرات تصل عنان السماء وتخترق جدر الخوف، وتعيدنا لشرارتنا الأولى، حيث كانوا معنا، نصدح بصوت واحد: «الله أكبر».

بعد سنين عجاف، وآلام تقرّحت في النفوس، وأحزانٍ لوت أظهر الآباء، ودماء كالماء، بغي وجور وشيبة ونحول، وجوع وضيم في سجون الوحوش، أذن الله بالنصر فكان اليوم، يا هيلين يفرح المؤمنون بنصر الله، لا خوف، ولا صمت ولا ذل، اليوم أعزنا الله بالتحرر.

ما أقدس معنى الجهاد يا هيلين؟!

معنى قائم لا ينقطع بتحرير أرض، ممتدٌّ مابقي الزمان، والله غالبٌ على أمره، والعاقبة يا عزيزتي لكم.

الرسالة العاشرة

يا عزيزتي،

لقد آلت بنا الأيام لمحطّات كثيرة، ووقفنا مرارًا على رصيف العبور وعدنا مرتعدين، كيف لا يأمن الإنسان إن كان في الجهة الأخرى يد ممتدة إليه؟ يا عزيزتي، لا أنكر معروفَ الدروس التي أُسديت إليّ، ولا الأنفاق المضيئة التي هُديت لها، ولا المعاني التي قطفتها وأتعهدها بالرعاية.

غير أنّ لي قلبًا جامحًا، لا يخضعُ لجريدة الواقع ولا لوهم الخيال، قلبًا يبحثُ بشتّى قوته عن هالةٍ سماويّة تجعلهُ آمنًا من التعلّق متخفيًا عن علائق الدنيا وأسرِها.

يا مهبط الفراشة الرقيقة، إن ما يؤرقني طوال الوقت أن أكون الحزن الذي أسببه لا الحزينة، ونفسي منّي في عناء، الرحلة للسماء شاقّة يا هيلين، غيرَ أنَّ كل خطوةٍ تفوق السابقة سموًا، أن تمضي والدنيا وراءك،والفلاح غنيمة الساعي، أن تكوني فتاة بجناحين، ما أبهاه من وصفٍ يطربُ له قلبي المتشوّق إليه.

الأرض شائكة، والسماء؟

هل يحلّق فيها من قيّد في الأرض؟

من يختار طوعًا أن يكون أسيرًا فيها؟

نفسٌ تفر من الدنيا وتخشى أن تتلطخ من المادّة الحامية، ألا تحويها السماء؟

الإنسانُ قد يُحاصر يا هيلين، ويخيّل لنا أن المحاصر محتوم أمره، ولا يحتمل إلا مصيرًا واحدًا وهو "الهلاك"، يخيّل للإنسان على ضعفهِ أنّه متهالك، وأن الدنيا أقسى من أن تسمح لقلب رهيف أن يمرَّ من خلالها دون عطبه، وهذا في الواقع حقيقة لإنسان موكلٌ لنفسه، متروكٌ لأفكاره، تائه في دهاليز ظلمته.

الذي يعرف ربّه يا هيلين، يسمع نداءه كأنه يناديه بخاصته ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ تأملي في المعنى العميق الذي يسكن هذه الآية، ولم اختار الله كلمة ففروا بدل أقبلوا؟

الفرار يا هيلين، لا يكون إلا من خوف، يعلم الله أن الإنسان خائف محتاج لمأمن يأوي إليه، في عمقِ الخطر، والمخاوف، والقلق، والأحزان، التي تتربص به يهرب إلى خالقه، من نفسه والدنيا.

كلّما نظر الإنسان إلى نفسه عليه أن يذكّرها أن الله موجود، وأنَّ كل ظلمةٍ يبحث الإنسان عن إجابتها لن يجدها سوى بالرجوع إلى خالق النّور.

الإنسان الشقيُّ يا هيلين، كلّما أوقد الله له قنديلًا أطفأه، كلّما وهبه الله رسالة مزّقها، وهو هوَ نفسه!

باحث عن النّور والجواب لكن بطرقٍ خاوية، ونفسٍ شحيحة.

من يصمُّ أذنيه يا هيلين، ليس كمن يُلقي سمعه، ومن فقد اليقين ليس كمن يجاهد ليحمله.

هل تذكرين حين تأملنا قصّة موسى؟

لقد حوصر ومن معه بجنودٍ جبّارين، إنَّ فقدَ الأسباب يا هيلين، يُضعف اليقين لكن الذي يعرف ربّه يقول كما قال موسى: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وكما قال الشاعر:

«النّور في قلبي وبين جوانحي

فعلام أخشى السير في الظُلم؟».

الرسالة الحادية عشرة

عزيزتي هيلين،

لا أجد محبرة قلبي للكتابةِ، غير أنني اشتقت لكِ، شقَّ الزمان بهذا البعد، والطرق رويدًا تصبحُ غريبة، النافذة مغلقة، والنجم المعلّق وحيد، قلبي مبلل والأملُ يهدهده كل ليلة، أنّ لنا ميعادًا مع الفجر القريب!

الرسالة الثانية عشرة

عزيزتي هيلين، الحرب عوّدتنا البعد، والمسافات بيننا لا تنطوي دون ألم الكَسر، أعلم أنَّ الصورَ تنخرُ في قلبكِ وأن الفرحَ دخيلٌ تخافين أن تستقبليه في وسط تعزيةٍ لا تنتهي مراسمها، يؤرقني حالكِ بعد الحرب ولا أجرؤ أن أقتحم صمتكِ بصخبِ رسائلي، بكائي كان كل بوحي يا هيلين، أعودُ وبين جوانحي قلبٌ مبلل، تطفو منه الدموع التي لم تنبت حروفًا، يحاصرني الصمت، وهدوئي ليس له تفسير، أنظر للسماء لأن الأرض ضيّقة، وأطلبُ الأمان لأنها مخيفة. عزيزتي هيلين، لطالما استثقلتُ نفسي في حضرةِ الحزن الذي يقابلكِ، وقدّستُ عزلة الإنسان المؤقتة وحديثه مع الله، أعود خطوة للوراءِ وأقول:«يارب هذه صديقتي وعندكَ الضمادة».

لا أملكها يا هيلين، لكنّي أطلبها لأجلكِ.

يا هيلين، يضمّد المحب محبوبه بالدعاء حين تكون يداه مبتورتان من العجز. هيلين يا عزيزتي، أعلم أن الحرب كانت أقسى من أن تمحى بليلة، لا أدفعكِ للفرح بل أتلو عليكِ الأمل السماويّ، الذي يخبرنا بمآل الصابرين وجزاء المحتسبين ومرتبة الصادقين، الأمل الذي يذكّرنا أن الراحلين على درب الله لم يموتوا، بل أحياء يرزقون.

الإيمـان يا هيلـين يهبنـا الأمـل، ومـا هجـر الأمـل إنسـانًا إلّا واسـتُدرج لليـأس والقنوط.

عزيزتي هيلين، رغم المسافة بيننا أحبكِ!

آمـلُ أن أكـون صـادقة بمـا يكفـي ليحقـق الله لي مطلـبي في أن يلقـي في قلبـكِ السكينة، ويصبَّ في قلبكِ الطمأنينة، ويأخذ بيمينكِ للسلام، ويحفظكِ بجنودٍ من عنده.

الرسالة الثالثة عشرة

عزيزتي هيلين، لقد فُجعت حين قرأت رسالتكِ الأليمة وأنتِ توصيني أن أدعو لأمك بالرحمة، لطالما حدّثتني عن خوفك من الفقد، يخترق قلبي صوت أنينكِ وأنت محاصرة بالآلام، والأوجاع لأن يد الموت طالت دياركم، كأن كل سارية في الأرض وكل سابحة في السماء توقفت.

اليوم تبكين فقدًا، وتوضعين باختبارٍ قاس، والمسافة بيننا لا تسمح لي أن أحضنك إلا دعاء، وكم تمنّيت أن أكون معكِ في يومٍ كهذا.

الدموع تُذرف قهرًا وتُذرف حزنًا، والدنيا كما هي، ما أشدها إذ تشتد، وما أوسع رحمة الله بعباده إذ يربط على قلوبهم!

لا أملك مواساة سوى البكاء، ولا تثبيتًا إلا التذكير بالآخرة، أكان ليبقى للإنسان عقل دون التصبر بها؟

سفر مضن، ومحن تختبر شدة الإيمان الذي سنلقى الله به، ويالمؤمن الذي يجد الرضا ملجئًا في أشد العواصف اشتدادًا، لا عبثت به يد الدنيا ولا طاله السخط.

هم السابقون ونحن اللاحقون يا هيلين، عند الله سنسأل فرادى، وكل منا يفضي إلى ما قدّم، والفائز من ذهب راضيًا مرضيًا، ابتسامته تحكي حياة الآخرة،

وروحه العطرة الخارجة إلى دار الخلود تفسّر حنين العبد لخالقه... والجنّة لسكانها تحن، هناك حيث تنتهي الأحزان والمحن نعيم مقيم عند مليك مقتدر .

قفي ثابتة كما عهدتك يا هيلين ولا تشيحي ناظريك عن النّور، فالله قدّر لها الذهاب وهي أحبت لقاء الله!

الرسالة الرابعة عشرة

يستطيع الانسان يا هيلين أن يعبر بهمومه لكنه ابدًا لن يستطيع أن يعبر دون قلبه!

لطالما قدستُ معنى أن يملك الإنسان قلبًا حيًّا بين جوانحه، القلب مبتدأ كل شيء ومنتهاه يا هيلين، إن انطفأ فقدنا الإشارة، لذلك أخذ الله بيميننا للمعاني الكبرى، لا شيء يثبت القلب إلا أعمدة السماء، بها يتصبر الإنسان على زلزلة الأرض حتى يلقى الرسول –صلى الله عليه وسلم– على الحوض.

الخطوة الثقيلة لها أثر أعمق، هذه تعزية المتعبين يا هيلين، لا بأس عليك... لا تذهبي نفسك حسرات في الطريق فلن يغيّر من حقيقة الأيام ولا وعورة الطريق، قد يعبر الإنسان حياته في ترقب تغيير ما، فلا يحصّله، ويقول ليتني عشت تلك اللحظات العابرة، ولكن هيهات أن تعود لحظات ابتعلها الزمان.

في نفس كل منّا همٌّ على قدره وطاقته يا هيلين، يسكن بحضرة المعاني فكأنه جزءٌ منكِ، نسقيه من غيثِ المعنى، ونرعاهُ بسياجه ليس لأنّنا نحبّه بل لأن الهمَّ مالم يوضع في بيت المعنى ،عاث، وأفسد، وانفصل همومًا حقيرة ما تفتأ تزيدُ من استنزافنا حتى نوهم أننا نحمل، ونتحامل، ونصبر، والحق أنّه ثقل دنيا، وحمل فارغ ذلك لأن الهموم التافهة لا تملك معنى تعزّي فيه النفوس المتعبة!

بخلاف الهموم العظيمة التي تتعب صاحبها وتدمي فؤاده لكنّ معناها الأكبر هي غنيمته الأبدية.

لقد شد الهم على معصمي يومًا فلم أمسك في اليد الأخرى إلا مطرقة لكسره ولم ينكسر، ذلك لأنها أقدار لا يملك الإنسان مواجهتها، فقلت هل جربت أن تمسكي زهرة؟ على الأقل لتهبي قلبك شعورًا دافئا وصورة لطيفة، وكذا أنت هذه المرة دون مقاومته، ولا محاربته، فقط استريحي من حرب لم تخمد، علّقي قلبك في معارج السماء، لتتناثر همومكِ كما يتناثر غبار النجوم في الفضاء لا طالتكِ يد الشقاء، ولا عبثت بكِ يد الدنيا، وحفتكِ معية الله أينما حللتِ.

الرسالة الخامسة عشرة

عزيزتي هيلين، هذا العالم الكبير يضيق بأصحاب المعاني الكبرى والغايات العظيمة، لقد ثقلت قلوبهم بالشوق، فتركوا الدنيا بمن فيها وهاجروا للإله، كل إنسان يملك قلبًا يا هيلين، يجب أن يستحضر عظيم المهمة التي أمّن عليها، وكلّما سما ثقلت مهمته، إذ أنه يجب أن يتفقده بين الفينة والأخرى؛ ليطمئن أن الأشواك – من أمراض وفتن – لم تنبت في قلبه وكل شيء يستدعيه لذلك! أن يغسله بماء السماء، ويرتل عليه وحي ربه، ويجاهد ليحظى بأسمى مما قد يحوزه قلب عبدٍ محب ...

الإنسان يا هيلين كائن ضعيف، لذلك أذهل من فكرة أنه استطاع أن يحمي قلبه في عالمٍ كهذا، ليس لأنه قوي بل لأنه تعلّق بالقوي.

لطالما تساءلت عن حال القلوب في تضاد ماتعايشه، التي تسير في طرقٍ شاقة، وتذوقُ علقم الحياةِ في مآسيها، وترى صوراً حادة تشرخ لبَّ شعورها البهي، وتتكلّف في مودّة ساكنيها لتصاحبهم في شائك الأيام وحلكة ليلها وبؤس عيشها، وتظن أنها فنيت وتلاشت، أو اسودّت وانطفأت، أو كتب عليها الشقاء في حفنة الأيام المتبقية، ثم ما تلبثُ أن تنمو البراعم في أطرافها، وتجيبها

فراشاتُ الربيع، وترتوي بتفاصيل الجمال، ويمتلئ وعاؤها بأمل عجيب، ويشرق كوكب الحب في أكنافها؛ فيسلب صورة الظلام ومعناه، وتجف دمعة مملوءة بالكمد، فتؤنسها كل ذرّة حيّة، وتسمعُ أحاديثاً عميقة ترمي بداخلها سراً من أسرار الحياة العجيبة!

تلك الحياة بقسوتها لا تكفُّ عن إدهاشنا ونحن لا نكفُّ عن ملاحقة معانيها واعجبًا، كيف لإنسان أن يطيق عيشه دون قلبٍ يحمله في صدره ودون غاية يعيش لأجلها؟

إن من يحمل هدفاً نبيلاً سيتسع قلبهُ ويطول طريقه ويمتد الأفق أمامه ويزداد إدراكه لعظيمِ ماينقصه كلّما حازَ على معنى في سبيله، فيصبح مقاتلاً لا يخشى المواجهة بقدرِ ما يخشى أن يكون فارغاً لا يؤتى من حصائد المعالي شيئاً، وكلّما تفرّغ الإنسانُ صغرت معانيه حتّى تكادُ تسلبه إنسانيته، فهو بذلكَ ليسَ سوى آلة ماديّة مفسدة على الإنسان يا هيلين، أن يمسح الصور المشوّهة، ويبدأ بتركيب كل شيء لمعناه بفقه حقيقة الدنيا، ويؤمن أنه هاهنا لغاية، في طريقه إليها يستلذ، لا يستغني عن الأمل ولا يظلم أو يستحقرنَّ الهبات التي حيزت له، فنحن هنا مطالبون بالسعي لغاية شريفة وكلّما حدنا عنها فقدنا شيئاً منا...

ودائمًا ما أقول: «لا تبع معانيك، إنها أثمن من أن تبدلها بمتاعٍ زائف».

الرسالة السادسة عشرة

عزيزتي هيلين ...

مرَّ وقت طويل على آخر محادثة بيننا، أخرج للسماء لأرسل لكِ أدعية مستعجلة، تخفف من صخبِ الشعور القلِق الذي يزداد اتساعًا داخلي، لقد نزعت هذه الحرب منّا كلماتنا، وبريدنا الذي كان يعجُّ بالحياة، وأخذ الحزن مكانًا أكبر مما كنا نتصور... أقلب فكري عن هذه الدنيا، لطالما تساءلت عنها، أسئلة لا يسعها جواب سوى التسليم، في الاختبار حكمة مختبئة، وقد تكون نجاتنا من الاختبار اختبار بحاله!

هكذا يا هيلين، الدنيا ليست لنا، إنما نسقي بذورنا التي اخترناها ليكون فرعها في السماء، نسقيها ولو بدموعنا... الليالي التي تمر فوق قلبكِ ثقيلة، كأنني أرى طيفكِ أمامي يتأوه من الحزن ويهمس للسماء أسرارًا ويبث شكواه، مالم تكن يدي تطالك لتربت على كتفكِ فها هي أدعيتي، تربت على روحكِ... أكملي يا هيلين، فالصبح قريب، هل صوت قلبي واصل إليكِ؟

الرسالة السابعة عشرة

عزيزتي هيلين ..

أعود للكتابة بقلبٍ محاول، أقول وأنا في طريق العودة يا للدنيا ما أغربني عنها!

رحمة الله تحفني، تمسكني، وتقول لي: «الطريق من هنا».

لمَ لا يغيّر الإنسان نظرته يا هيلين؟ لم علينا دومًا أن نبكي على الصورة الماثلة أمامنا دون البحث عن الرحمة المخبوءة؟

لم لا نؤمن يقينًا أن الخير وحده واقع؟

أحب الشجاعة يا هيلين، التي تجعل الإنسان مستعدًا لكل نتيجة، وأكره الضغف الذي يحبس نفسي عن التحليق في سماء الله، أن أقف أمام قلبي وأقول أن الطريق لم يكن لنا، لنعد آمنين.

لم قد يتلف الإنسان أراضيه التي سقاها بدموعه لمجرد فساد شجرة فيها؟ الله في السماء ناظرٌ إلي، يعني أن كل شيء سيكون على مايرام بالطريقة التي يُريدها.

أعظّم شعور الإنسان ورهافة قلبه التي خدشت بعواصف الحياة، ومحاولاته الدؤوبة في تضميدها، أعظّم كل خطوة شجاعة تأخذ بالقلب لمواطن الطمأنينة، وتهمس له: «كان مجرد اختبار، قلبكَ مازال هو».

عزيزتي هيلين، السماء مليئة بالنجوم، أكاد أسمع نغمتها في محاولة إيناسي، يالنجوم، لا تطفئك إلا قدرة الله، أليس هذا عمق الذهول؟

أريد أن أنظر بعين الأمل دومًا هذا عهدي القائم... خطوة أخرى، في طريق طويل.

الرسالة الثامنة عشرة

عزيزتي هيلين، في قلبكِ جرح كبير، وفي دموعكِ آهات ناشبة، وفي صمتكِ لغة غزيرة، وكلّها تؤرقني، أسند رأسي المثقل على الحائط، وأقلب طرفي في السماء، الصور الدامية لا تخرج من عقلي، الأمر أشبه باصطدام يخلق الألم، الدنيا تزداد قساوة، والحرب مؤذية بطريقة جنونية، كم ألمٍ يلحُّ على الدمعِ أن يفيض؟ كم يتمنى المصابون في قلوبهم وأبدانهم أن تغمض أعينهم؛ لتنسلَّ أرواحهم بلا نزع، راضيين مرضيين، لا لهم ولا عليهم؟

أقلّب في مواقف الراحلين، وأنظر للأنفس التي غادرت الدنيا بلا ميعاد، بعضهم تمنّى ذلك الرحيل لدرجة أنهم قضوا ليال طويلة متضرعين بقلوب مرتجفة، متشوقة للجنان، والنظر لوجهه الكريم، فسافروا من عناء الدنيا وفواجعها، وباعوا أنفسهم والله اشترى، ووهبوا ما تمنّوا من نعيمٍ مقيم، وجنات عرضها السموات والأرض، هذه الدنيا آيلة للزوال يا هيلين، وما أشقى الذي باع الآخرة فيها وأخلد إليها، النار تشتعل فتنضرم، ولا تنضرم إلا لتخمد يا هيلين، فلكلِّ ظلم وعد إلهي بفنائه وكل ظالم له عذاب مهين، يأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت.

لا يرى البعيد صورة النصر القريب، ولا يأمن المتزعزع موضع خطوته مهما بدا أنه قوي متجبر؛ لأنه من لم يركن لقوة الله فهو ضعيف مهزوم ولا بد، الإيمان هو

وحده مسكن المعاني الجليلة يا هيلين، وهو وحده باعثها، فكيف لشخص لا يحمل إيمانه أن يحمل الدنيا؟

أشد أوقات البلاء هي الأوقات الحاسمة، لا يوفق الله الناس كلها لكراماته، وكلٌّ يعمل على شاكلته، فالبلاء يعرف الصادقين ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

أذهل يا هيلين، من المقامات الرفيعة التي يصلها العبد، تلك التي لا تجعله يرى إلا خالقه، أقف منبهرة أمام قلبٍ مجاهد، نبتت معانيه في رياض إيمانه؛ فكانت جنته في صدره.

ياللدنيا يا هيلين!

أتعبتْ كلَّ مسافر؟! وليس له مستراح إلا الجنة!

الرسالة التاسعة عشرة

عزيزتي هيلين، حقيقة الدنيا لا يؤتاها الإنسان دفعة واحدة، تهبه الدنيا كل يوم قطعة، إن غفل الإنسان عن وضعها بمعناها شقي في استيعابها.

قاسٍ على هذا القلب أن يسير غير آمنٍ لشيء. أدرك فظاعة ذلك، لكن كم صوتًا من قلبك يريد أن ينطق الإمتنان لله؟

أتذكرين حينما كنا نتشارك الخطوة، ونحلم باللقاء؟ كم طريقًا مشيناه هناك يدًا بيد، بين الجبال، وعلى ضفاف الأنهار، وبين الزهور، يا للأحلام، حتى الأحلام أصابتها هذه الحرب، تتسلّل خفية كل مدّة طويلة، كرسائلنا.

لا أدري شيئاً عن طريقك غير أنّ وجهتنا معلومة، نحن بالإتجاه ذاته، لكن بخطان متوازيان، لا تطالك يدي، بل قلبي... ماذا عن نبتة الياسمين في زاوية قلبك؟!

أتكون دموعك سقاء لها، أم أحبتها غيمة ممطرة؟

اليوم لا يظهر لي القمر في السماء، كان صاحبي السماويّ في الأيام التي خلت، تقولين أنكِ حدّثت صديقتك عنّي، أما أنا فأفضيت للقمر ما أحب أن أفضيه إليك.

يغيب القمر يا هيلين، ويبقى القلب متكئًا على كرسيّه، يغزل الحرف، ويرفع الدعاء، ويتلو معجزة ربه حتى يغفو، تهبه السماء غطاءً وتهمس له النجوم: «ستضيء رغم بكائك».

هل الدموع تطفئ لهيب الحرب يا هيلين؟ الحرب سخّفت كل حاصل وصغّرت كل حزن هنا، نبكي عجزًا ورجاءً، ونقول بأملٍ مضمّد: «الصبح قريب».

الرسالة العشرون

عزيزتي هيلين ...

هيلين، تمر الأيام مسرعة في زمنها بطيئة في أثقالها، حاملة آهاتاً ومعاركاً ناشبة منذ خلقت الأرض ليومنا هذا، ويح الزمان، لا يوافقُ أحداً إلّا ليخالفه.

لو كان الإنسان رهيناً في قفصِ اليأس لنهشه نهش المفترس، ولو شاهدَ الآلامَ من نافذة بشريّته لفقدَ عقله وافترشه الجنون، ولكن المؤمن محفوظٌ بالله، متصبّر فيه، مخلوق لأجله .

يقولون: «أن الحرب على مشارف الإنتهاء»، أعلم أنك لا تؤملين توقفها؛ لأن الغدر حادث ومشاهد، ويشقُّ عليَّ تأميلك لأن الملعونين من فوق سبع سماوات؛ لا عهد لهم ولا ذمّة، غير أنني لا أريد لحسن الظن أن يكون تعريف هذا الأمل، أحسنُ الظن بربي يا هيلين، أن العاقبة على خير، وأن كل ماحدث وسيحدث هو خير عظيم للأمة جمعاء.

هذا قلبي يا هيلين، تعلمين ما لكِ فيه، أعلم أن المرحلة التي مضت كانت أقسى من أي وقت، وأن ما مررتِ به يعجز عن التوصيف، وأنكِ تحتاجين عمرًا بأكلمه لتصيبي شرح شعوركِ كما هو.

ما فعلت هذه الحرب بكِ وبنا؟ وكيف قَصدتْ ممرَّ الحرف ليصبح البوح أثقل من الصمت؟ تردّين أن كلاهما أشق من الآخر.

ما معنى أن يحنَّ الإنسان ليفضي مشاعره في قلب من يحبه لكنّه لا يستطيع لشدّة جلجلتها وتعقيدها؟

تقولين: «وكيف تفعلين؟».

أقول: «أبكيها وأفكّك عقدتها شيئًا فشيئًا على ضوء رحمة الله».

هنا ركن آمن، معلّق فيه قنديل يوقد من وحي السماء كل ليلة، تعالي نلجأ إليه، نضمد جراحنا ونتزوّد من معانيه، ليرضى الله عن صنيعنا يا هيلين، هذه أكبر غنيمة قد نحوزها.

الدنيا في الخارج قاسية، تحتاج قلبًا مدرّعًا بالإيمان، هذا ما تعلّمته من نفوسكم التي ثبتت وضحّت وبذلت، لا نملك ممحاةً للحادث، ولا وهمًا يرقّع لنا حقيقة المعركة، لكن الوعد الرباني متحقق ولا بد، الصبح قريب مهما شقَّ هذا الطريق وطال ليله، سنتقاسمه حتى نصل.

وكما أقول دومًا: «هاتِ يدكِ، لا تبتئسي».

الرسالة الحادية والعشرون

تحتاج النفس التي تسير على تراب هذه الأرض أن تأخذ قسطًا من الراحة، الأرض واسعة لكنها محدودة، بالكاد يجد الإنسان فيها نفسه، من يفني حياته لأجلها ما أبخس معانيه وما أضيق روحه!

الجو بارد للغاية يا هيلين، أخرج لهذا الكون الفسيح بعد أن غفت المدينة، تخالفني أمّي خوف مرضي، فأقول: «للبرد معنى أحب ألا أختبئ منه كل الوقت».

أشرح لها عن نغم الكون، إلحاح قلبي للقرب من السماء "ذاك سفر لروح متشوّقة".

«أتأمل الجمال فأتذكركِ فأشتاقُ لكِ».

هذا ما أخبرتني عنه ذات يوم... الحب يعيدُ القطع المبعثرة لمكانها حقًا، والإشتياق لغة القلب للفكر أن يفتح الباب لكتاب، إن تعذّرت الأرض فالسماء، إذ أن الحرف ماهو سوى محاولة لنقل الشعور بأبهى حلّة، أما طريق السماء فإن كل حلّته بوصوله صادقًا، والصدق وفير

هيلين، اليد الباردة هي التي تصنع الدفء الفريد؛ لأنها أعلم بمعناه. الساعة تمرُّ بسرعة هنا، الكون أنيس للغاية، كلما ألقيت نظري على شيء منه يُعمل فكري ويتهيأ قلبي لشعور قلّما أصيب شرحه.

تترك القطّة مسكنها وتلحق بي، تتشبث بوشاحي وتموء، أسألها: «يا قطّة ما الذي يدفعك لتكوني أنيسة؟» أسكت هنيهة وأقول: «ليتني أستطيع فهم لغتك».

هيليين، أشعر برحمة الله التي وهبنا جزءًا منها، حين يتعب الإنسان كل الكون يصبح رسالة إيناس له.

الرسالة الثانية والعشرون

عزيزتي هيلين...

الجو بارد، كأن ساعي البريد متجمّد في الطريق الموصلة إليكِ أو كاد، أم هل القرّ غالب دفء الحرف فغلبه؟!

يقولون: «أن قمر الشتاء وحيد، لأن البرد له سطوة على النّاس، فيمنعهم اللقاء به».

أخرق القاعدة وأقابل قمر الشتاء كلّما استيقظ الصوت داخلي، أتحامل البرد وأقف لأقول: «يغيب الناس عنك وأنتَ مازلتَ القمر».

هذا معنى تلقيته منكِ، معنى منير لا ينطفئ.

أكتب إليكِ الآن لأنني أبصرتُ الجمال في الخارج، والجمال مدعاة للإشتياق، عزيزتي هيلين، أشعر بالغرابة من هذه الدنيا كلَّ خطوة، أتساءل أكثر مما أجد الأجوبة، الأسئلة مضطربة والأجوبة ساكنة، لكن الغريب في الأمر أنني لا ألح لإيجاد الأجوبة ولا يجعلني السؤال مضطربة.

لم أعد ألقي بالًا يا هيلين لكل سؤال لم يكلّفني الله البحث عن جوابه، أضعه في حيّزه وأغلق عليه.

بعض الأسئلة تعبث بالفكر وتتربص لتعبث بروحٍ ساكنة تحت جناح الطمأنينة. الركض في هذه الدنيا منهك، والتفكّر في حال حوادثها معقّد، من يلقاكِ يا

هيلين، حين تلفظين تنهيداتكِ المتعبة؟ ومن يصحب القنديل؛ ليضيء طريقًا تخافين الخطو فيه؟

لتتسرّب حبات الرمال من بين أيدينا، نريد أن نزرع الثمر

الرسالة الثالثة والعشرون

عزيزتي هيلين، البعيدة مكانًا القريبة روحًا.

تتتابع رسائلي حين يكون في قلبي فائض من المشاعر أحب ترجمتها لحرف يُكتب، لننظر فيما بعد، كم قلّبتنا الدنيا على الجمر فأبينا أن نحترق وأبينا إلّا أن نُصقل؟

لنقول لقلوبنا حين تصل للنهاية: «جاهدنا لنحميك من الإحتراق، ولنليق بشرف أن نحمل قلوبًا حيّة بين جوانحنا».

يعزُّ عليَّ أن أقرأ بريدًا مبللًا بالدمع، فيه غصّة تشبه الشوكة العالقة في حلقٍ جففته خيبات الزمان، غير أن كلَّ كلمة ترسلينها تعني لي الكثير، كل شعور مهما كانت صفته.

هذا قلبي، أفرغي فيه كل ثقل، الثقل خفيف حين يكون ممن نحبهم، هل أخبرتك بذلك قبلًا؟!

كم تحدثنا يا عزيزتي عن الدنيا، كلّما اجتزنا خطوة صعبة تروي لنا الرحمات عجائب اللطف الخفي الذي صاحبنا آنذاك.

ما أشقَّ الدنيا، وما أخفَّ الثقل بالحب، وما أرحم الله بالعباد!

لا تتكلّفي يا عزيزتي كلامًا خوف الجفاء، إنّي أحبكِ في أملكِ وألمكِ، حين تكتبين لي وحين لا تكتبين.

يكفي أن تكوني بخير، جاهدي؛ لتكوني بخير، الرحلة طويلة، والجنّة المستراح الأبدي، حفّتكِ رحمة الله من كل صوب، وآمنكِ من شرور الدنيا ومصابها.

الرسالة الرابعة والعشرون

عزيزتي هيلين، كلّما مشينا خطوة في هذا الزمان ازداد القلب ارتجافًا وازداد العقل تحذّرًا، وبدأ يشكك حتى في جناح الفراشة، يقول: «لعلّها جارحة!» هذا خوف يحتاج للشجاعة، أحب أن أسمع صوتها وهي تقول له: «أنت ثقيل ومؤذٍ لكنّك لن توقفني عن المضي».

أحب المواجهة بقدر ما أكره الإستسلام يا هيلين، الأماكن الضيقة التي نهرع إليها حين يحاصرنا الخوف لن تتسع، كأنها تقول: «هذا المكان للجبناء، وأنتِ شجاعة».

يبكي الإنسان يا هيلين، لأنّه يعلم أن الشجاعة بعض الأحيان قد يحملها مضطّرًا لا اختيارًا، وأن كل ما بيده من البذور التي كتب لأجلها عهدًا لا يقدر على التفريط بها ولو أُدميت قدماه، هذه مشقّة الطريق لأمانة الرسالة. الضعف قبيح في عالم قاسٍ، لكنّه محبّب حين تكون النّفس آمنة في رياض لا فزع فيها، لذلك يا هيلين، لا يستطيع الإنسان أن يفرد أجنحته وهو بعيد عن السماء ولأجل ذلك كانت السماء وجهة الخائفين الساعين لأمانٍ لا يُخرق، ولا يُعبث به، ولا تطاله يد الدنيا.

للإنسان قلب رهيف يا هيلين، مملوء بالمشاعر مهما حاولت الدنيا أن تسلبه إيّاها، لكل شعور معنى وتضييعه نقصٌ مشوّه، لقد صوّروا لنا أن الشجاعة ألا

نخاف، لكن الشجاعة حقًا أن نُقدم رغم خوفنا، وأن الحزنَ ضعف لكنّه إشارة حيّة لقلبٍ يُجاهدُ اليأس.

وأنَّ القوة أن نبقى ثابتين دومًا لكنّها المحاولة للتشبث كل مرّة، الفرار من فكرة الإنسان الضعيف يا هيلين هي فكرة عبثية، هل رأيتِ إنسانًا صلبًا طوال حياته؟ لم تهدر له دمعة؟ ولم يتحرّك قلبه على فجيعة؟ ولم يذبل بيد المحن؟ ولم يتعثّر في الطريق؟

لولا وجود الله أين كان الإنسان ليذهب بكل مخاوفه ومشاعره يا هيلين؟

فكرة أن الله موجود منقذة بحد ذاتها، فمن رجاحة عقل الإنسان وإحاطته بنفسه فقهاً أن يفتقدَ لقوّة أكبر تحفظه وتزجره وترسم طريقه على أسسٍ ثابتة لا يعتريها النقص ولا يشوبها الضعف، وعجيبٌ أمر أنفسنا التي ما تعبأُ بقوانيننا مهما كانت صارمة، وتتجاوزُنا رغماً عنّا بقوّة أكبر منّا لا نقدر عليها، علّمنا ربنا أن الإنسان خلق ضعيفاً، ووضع لنا طرق عودةٍ لعلمه –جلَّ جلاله– أن لعباده ميعاداً فيه وعودة ضارعٍ تائب كل حين، فليسَ المقالُ بما نعايشهُ من جبلّة النقص بل بتسليم أنفسنا لقيادةِ الهوى وخلعِ مبادئنا. أقلّب فكري بالنّظر لحال الإنسان ككل، وأقصدُ فيهِ جواباً فريداً، أتمثّلهُ في رحلتي وأجاهدُ على ثغرهِ.

أتساءلُ يا هيلين، عن الذي اختار أن يوكل نفسهُ لنفسه، وابتدأ رحلتهُ بغير هدي لم يلبس درعَ الوحي ولم يقصد أمراً إلّا لهواه فيه.

لازلتُ مصرّة على اقتطافِ معاني المجاهدة بمخالفةِ مانهواهُ لما نهواه، ولذّة تلك المجاهدة التي تُرضينا ثمارها رضاً لا يقارن بعلوّه، ومحالٌ من رأى أثرهُ أن يُفرّط فيه، أكتبُ بامتنانٍ عريض عن عظمةِ أن تكون عبداً، وضع لكَ حدوداً وحُفظتَ داخلها ولو خالفتكَ نفسك، فتغاضبها لأجل ربّها، بمعنى "سأحفظك رغماً عنكِ، لأجلكِ".

الرسالة الخامسة والعشرون

عزيزتي هيلين، ساعي البريد بيننا متوان في الطريق، بالكاد يصل وبالكاد أستطيع جمع أحرفي، بل ليس الساعي يا هيلين، إنما الدنيا التي تثقله، رسائلكِ التي وصلت تعرفها لغتي اقرأ فيها أكثر مما يكون، والقلب للقلب مكشوف ولو حالت بينهما الفيافي والقفار.

بماذا قد يفكر الإنسان وهو ينظر للنيران التي تمتد ؟

لا تقلقي حيالها يا هيلين، اليباس كثر، ولا بد له من نيران تصيّره رمادًا، ولا بد للأرض من أن تهتز لتنبت، أنظر للدنيا من ذات النافذة التي تعرفينها، كم مرَّ من حدث جديد و اختبار مغاير، كم مرة قلنا النهاية فكانت البداية؟! ياللدنيا يا هيلين، ما أغربها وما أشدها! أعي يا هيلين، أن الدنيا لن تكون رئيفة معنا بقدر ما نحلم، ليس لأننا لا نستحق بل لأن معناها لا يتحقق إلا بساحات المكابدة والمجاهدة، ليس فقط بنفسكِ بل بميادين العمل التي سخرنا لها، وأقمنا فيها، لا أخفيكِ أنني متعبة، وأن الكثير من الأمور التي أحبها تفوتني، حتى أوقاتي الخاصة بدأت تتقلص شيئًا فشيئًا، يسلينا الحب تارة، وزهرة من أرضه الفسيحة، أحضان الأطفال، ودفء العائلة.

لطف غادق، وكرم بهي من إله كريم يرعى عبده، اعذريني على قلة البوح، إلا أنني أختلس الوقت من الليل لأقول لكِ: «وأنا اشتقت لك جدًا»، فهل ستقرأين أكثر مما أكتب؟

الرسالة السادسة والعشرون

منذ عدّة أيام ومعنى الأمان قائمٌ في عقلي ومبهورةٌ بوجوده، ومتشوقة لحيازته كاملاً.

الإنسان خائف: من الآخرة، الدنيا، الأيام، نفسه.

ذات يوم كنتُ أحدّث صديقتي عن معناه حتّى تنفّس الصباح ومرّت عليَّ قصّة موسى ولفتني فيها ذكر الله لمشاعره وتكرارها ﴿ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

علم الله مشاعره فأرسل إليه الشيخ الكبير يتلطّف معه حين قال: ﴿ لَا تَخَفْ﴾.

كلمةٌ لا تتوقفُ عند حدِّ لفظها، لكن حين كلّمه ربه اكتمل الأمن وعظم ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

إنّه لشعورٌ مبهر يا هيلين، دونه الإنسان متخبّط، تتخطفه المخاوف من كل صوب. ذاك أمانٌ سماوي، يتنزّل على العبد الذي سلكَ طرق أسبابه، غير أن الدنيا وحدها لا تهب الأمان يا هيلين، هذا ما اتفقنا عليه، لكن أي شعور يحضن قلبي بوشاح دافئ، يهمس في أذني: «أمانٌ يشوّقكِ للجنان». قد يتنسّم علينا الأمان يا هيلين ليشوّقنا لكماله هناك، عند ربنا في جنات فسيحة ممتدة لا نصب فيها ولا وصب، أمشي تحت سماء المدينة وكلّي إمتنان،

غير أن هذه الليالي تحمل اسم الوداع، وقلبي ضعيف أمامه، إذ كيف نودّعه ونحن للتو رحبنا به؟

عزيزتي هيلين، الأدعية مرفوعة لله، هل ترانا سنلتقيها على بساط الإجابة؟ حسن الظن صفة آسرة، إذ أنها تحفظ للأماني بهاءها وتحميها من الذبول، هذا ما أردده على نفسي: «كوني فيّاضة بالحياة».

يا لسهولة الإجابة عند الله يا هيلين، بكلمة يقضي أمرًا ويسخّر أسبابًا، ويجيبُ سؤلًا. لكن مالم يرد الله أنّى لنا أن نلتقي مع أحلامنا؟

الفقر، هذا المعنى حدٌّ لنفسٍ تريد أن تعلو وتتكبر، وتذكير بحاجتنا الدائمة إليه ما أفقرنا و ما أغنى الله يا هيلين!

كل إنسان يمدُّ قلبه للدنيا يعود صفرا، لكن الله حيي كريم، يستحي من عبده أن يرده صفرًا، يحبّب للنّفس تحقق سؤلها، لكن هل تفكّرنا بعظمة أن يسمعنا الله، بصوتنا المسموع والخفي؟ أن يعطي قيمة لمسألتنا ويضع الخير فيها؟

اللهم بصِّر نفوسنا بالخير، ورضّها بخضوع المحبّ لحبيبه، اجعلها لكَ منقادة، لا تحيد ولا تجادلك في أمرك.

الرسالة السابعة والعشرون

عزيزتي هيلين، تأخر البريد لأن الساعي منشغلٌ بقلبه، يقول أنه تعطّل في الطريق، أقول ليس المعنى بوصول البريد، بل ببقاء معناه فيه. تقولين حرفكِ كالعيديّة، ونيسٌ في ليالٍ ونيسة، وأقول بل الكتابة إليكِ لهو الأبهج، للعيد إيقاع خاص ونغمة ساحرة، أفتح لها قلبي طوال الوقت، وأحاول ألا أفوّتها بانشغالاتي، حين أغسل الطبق، وأفتح الباب، أرتّب الأسرّة، وأرى الأطفال، أتلقّى الحب، ألمح البرق،أصنع الشاي، أتعرّض للمطر، وأختار لونًا وزهرة لفستان الربيع. الجو بارد، والربيع بعيد عنّا قليلًا غير أنّه لا يذبل إلا في صفحة الدنيا يا هيلين، كيف للإنسان أن يودّع بحزن وحرقة ليستقبل بحبور وسرور؟

هذه اللحظات الفاصلة تخبرني بمعنى عميق، وهو تعظيم شعائر الله، هنا فقط يكون الحزن والفرح لله وحده.

عزيزتي هيلين، هذا العيد ليس كسابقه، أستطيع أن أرسل لك معايدة دون غصّة خانقة، وارتجافة خوف، كما أنه ليس كالقادم، والخير آت، هذا غيث الأمل الذي يليق بعيد بهيج...

لن يتبلل البريد هذه المرّة رغم المطر الغزير، العيد سيظلّه حتى يصل لقلبكِ وحين يصلكِ ابتسمي للسماء لأبتسم لكِ.

الرسالة الثامنة والعشرون

عزيزتي هيلين، كنت أقلّب فكري في معاني الرحمة التي أودعها الله في قلوب حيّة، تلك المعاني سامية، لا تسكن في قلب أرضي، يريد تحقيق التجبّر والعلو ليؤهل، ليكون شخصًا قويًا، مُهابًا في تعريف من لم يدخل باب التزكية في رياض الإيمان.

لقد بحثتُ يا هيلين كثيرًا فما وجدتُ متجبّرًا إلّا وهو مشوّه قلبه بعيد عن منبع المعنى، بل ما وجدت مؤمنًا إلّا وقلبه يردعه عن القسوة والظلم، إن أزلّه الشيطان عاد وجلًا خائفًا يحمله دمعه لطلب قلبه.

الرحمة يا هيلين عزيزة، لا يكون الإنسان رحيمًا حال قرر ذلك مهما حاول، إذ أنّها مالم تُحفظ داخل الإيمان فهي منقوصة فارغة.

الرحمة قوّة بخلاف الموهوم، فلا أحد يحفظ معنى من معانيه في دنيا شرسة كهذه إلّا وكان ممدودًا بقوّة سماوية، فالإنسان ضعيف أمام كل ضربات الدنيا التي تحاول تقييد أجنحته بالشرور، لكنّه قوي يا هيلين مادام قلبه معلّق في السماء، كقنديل لا يُريد الإنطفاء، يرفض صراعات الأرض التي لا تفضي إلّا لباب واحد وهو قسوة القلب، هذا جزء من رحمة الله بعباده الذين اختاروا أن يسيروا

إليه، حتى تلك الرحمة التي احتفظوا بها لم تكن من استحقاقهم بل نعماء يمنُّ الله بها على من يشاء.

دعيني أقرأ على قلبكِ حديث رسولنا (صلى الله عليه وسلم): «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ، وَيُعْطِي على الرِّفق ما لا يُعطي عَلى العُنف».

ويقول أيضًا: « إِنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ في شيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ».

ما أعظمه من معنى!

ويُقال أيضًا: «الإنسان يختبر في رحمته».

تخيّلي حجم الكارثة إن لم يفلح؟

كيف يعيش الإنسان دون رحمة تذكّره بأن له قلبًا حيًا بين جوانحه؟

الرسالة التاسعة والعشرون

عزيزتي هيلين، وصلني بريدكِ بعد أن غفوت، التعب وحده من يقنع عناد يقظتي، التعب ضيف عزيز يسدل الستار على أفكاري ويطفئ الضوء داخل قلبي قائلًا بصوتٍ معاتب: «حان وقت الراحة».

يعزُّ عليَّ أن أحمل الحرف كأنّي لا أعرفه، الحزن يحول بيني وبينه، رأسي مثقلٌ شارد، وأحداث الأمّة تكاد تسلبني عقلي، إذ كيف، كيف نكتب أحزاننا التي لن تغيّر المعادلة؟ كيف نبكي إخواننا وهم يساقون للموت وندّعي أننا ننصرهم؟

هل رأيت صرخة تمنع إعدامًا؟

هل رأيت دمعًا يُوقف حربًا؟

هيلين، لقد سئمت من نفسي التي تكتب، وسئمت من الكلمات التي أقرأ، أشعر أننا نحتاج جميعًا لرؤية أرجلٍ للحروف، وأيدٍ تنكّل بالعدو، نحِنُّ جميعًا لرؤية الأمّة مستعلية على الكفر غير مطأطأة، رايتها مرفوعة، وشرع ربّها مطبّق!

آهٍ يا هيلين، للذلِّ جحيم مستعر، للإنكسار ألمٌ صارخ

هل نعيش لذلك اليوم؟ حيث تكون الأرض لعباده الصالحين؟

كم يحتاج من بذل وتضحية، وصدق وإخلاص، ودماء وملاحم؟!

ليتني كنت شجرًا أو نسيًا منسيًا، ما نحن بقائلين لربنا حين يسألنا: «ماذا فعلتم لدينكم؟».

الرسالة الثلاثون

عزيزتي هيلين، اليوم في أرض الربيع مشى طيفك قربي وهمس لي: «يا فراشة، زهرة الأقحوان التي تحبين في كل مكان».

هيلين، الربيع يذكّرني بحكايا طويلة، وعهود كتبتها على جذوع الشجر، لولا أن لي عقلًا مثقل بالواقعية لاخترت الخيال أمد الدهر، لا أعرف من خبر الأرض شيئًا... جمال الأرض الفتّان في حلّة الربيع دفعني لأسألها: « أحب الفصول إليك الربيع، أليس كذلك؟ فيه تكونين بأبهى صورة» .

هيلين لو لم يكن الشتاء مسخّر لإروائها هل نبتت؟ وهل تُلام الزهرة على يباسها مالم يكن للماء لها سبيل؟

تبقى الزهرة في مكانها تتشوّق للغيث، هل رأيتِ زهرة تغيّر مكانها لترتوي؟» حقائق الواقع جافة وقاسية، لذلك كانت الطبيعة منفذٌ ولغة حانية لقلبٍ رهيف، هيلين، الزهرة التي قُطفت لن تعيش مجددًا، ولو أعدناها لحديقتها لن ينقذها الربيع، الزهرة عمرها قصير جدًا، وكنت أتساءل لمَ؟

إنها تخبرنا أن الدنيا بكل زخرفتها وقتها قصير جدًا كعمرها، وحين يُستقبل المعنى بقلب حيٍّ فإن الزهرة لم تمت، بل بقيت خالدة في معنى قد يكون سببًا في لفت الإنسان لقصر توقيته فيدرك نفسه...

هيلين، حتى الزهرة قد تكون سببًا في إنقاذ إنسان؛ فقط ليفتح قلبه لهذا الكون بكل ما يحويه من معانٍ آسرة وصور بهيّة.

يا خالق قلبي، ويا خالق هذا الحسن البديع، أكرمنا بالجنّة، هناك حيث لا شيء يسلبه الزمان منّا.

الرسالة الحادية والثلاثون

عزيزتي هيلين، يكبر الإنسان ويده على قلبه، وقلبه متصل بكل حدث عابر. اليوم خفق عصفوري بشدة، لكن ذلك تسبب بأذية في جناحه، وكان سببه الخوف من الرعد، لا أدري، بمَ يواسي الإنسان كائنًا لا يفقه ما يقول؟ لكن العطف لغتي معه... هو لا يريد أن يفهم ما أقول، بل أن يأمن معي. لطالما تساءلت يا هيلين، عن حال قلبي، هل هو آمن بما يكفي؟ وهل بالضرورة أن يجد الإنسان قلباً رؤوفاً ليريه انعكاسه؟ قد يكون الخوف مُعدٍ يا هيلين، لكن ليس كالحزن. قلب المحب يتوسع بالأمن حين الخوف ليزمل محبوبه، لكنه لا يملك السعادة حين الحزن ليواسي محبوبه، بل لا يريدها، إذ أن السعادة مُعيّبة في حضرة الحزن المهيب أو الألم المتأوه.

هيلين، يسير الإنسان ومع كل خطوة يقول لعلها الأخيرة؛ لدرب يظن أنه مفضٍ لآخر. والحق أن طرق الدنيا لا تختلف إلا في صورتها، فمعنى الكد موصول به، معلق في يده، ثقيلة بها نفسه.

هيلين، إن ما أريد سؤالكِ عنه: «هل الدنيا تحاول أن تقتل مشاعرنا أم تجرحها؟ وهل لو جرحت سينمو فيها الزهر أم ستبقى مفتوحة نازفة؟ وهل يختار الإنسان الإجابة ويصنعها أم يُجيب حين يعيشها؟».

هيلين، هل جربت يوماً أن تحمي فراشة داخل معركة طاحنة؟ هذا بالفعل كما لو يُريد الإنسان حفظ قلبه في هذه الدنيا. إنها لأعجوبة أن ينجو الإنسان بقلبه، لكن تخيلي فاجعة أن يركض الإنسان حتى يصل لنهاية الطريق وقلبه ليس في صدره، وأن ما كان يحمله كان ثقل دنيا، والقلب عالق بين صخورها أو مدفون بترابها.

هيلين، لو يعلم الإنسان أنه فائز عند ربه لأحب الذهاب دون التحسر على يوم في هذه الدنيا، لكنه مسكين فقير، لا يعلم إن كان حظيظاً بالرحمة أم مستحقاً للعذاب؟

هيلين، هذا بريدي لهذه الليلة، أعلم أنه لن يصلكِ إلا متأخراً، لكن لا تنسي تضميد جرحك الذي أخفيتيه عني.

الرسالة الثانية والثلاثون

أفتح نافذتي ليمرَّ النسيم إلى غرفتي، السكون يعمُّ المكان، لكن هناك صوتًا ما يفتأ يتردد في قلبي، كم جلب لي السؤال؟ وكم أسكنتُه بالتسليم!

أنظر إلى الأشجار وأقول لها: «تبقين شامخةً رغم أن أغصانك تتمايل مع النسيم، كقلبي».

هيلين، الإنسان مهما أوتي من قوة لا يمكنه إنكار شاعريته، ومهما تكلَّف الواقعية لا يمكنه هجر الخيال، ومهما هجر الخيال فلن يأمن الخيبات.

يناديني الحنين إلى السماء، فأوجِّه طرفي إليها وأتنهد. يا للسماء، ما أبأسَ الذي لا يُمتِّع ناظريه بها!

السماء فسيحة، والأرض ضيقة، فهل رأيتِ طيرًا يحلِّق في القاع يا هيلين؟

هل تساءلتِ يومًا لماذا ألهم الله الطير السمو؟

السماء فيَّاضة، والأرض محدودة، أليس كل خيرٍ يُدبَّر في السماء ثم ينزل إلى الأرض؟

أليس كل ما عندنا ينفد، وما عند الله باقٍ؟

تخيَّلي يا هيلين لو أفلح الإنسان في تثبيت بوصلته نحو السماء، أيَّ نعيمٍ سيحوزه قبل النعيم الأخروي؟!

حتى مشاعره تلبس حُلَّةً جديدة، ولو كانت حزنًا، النجوم تلمع، وأراها رغم السنين الضوئية التي بيننا، ألا يهبك هذا نوعًا من الأمل يا هيلين؟

لا تفقدي الأمل، ولا تُبخِّسي معناه يا هيلين. أعلم أن اليأس أقرب، ولكن ليس كل قريبٍ مُحبَّبًا... آمل أن يحفَّنا الله بمعيته حتى نصل إليه، والدنيا خلفنا.

صديقتكِ المشتاقة إليكِ: سلام.

الرسالة الثالثة والثلاثون

عزيزتي هيلين، لا أنكر حاجة الإنسان لطمأنينة تزمّله، ولا أنكر سعيه في البحث عن قلبٍ يجد فيه أريكة دافئة ليستريح من معارك الخارج، ولكنّي أنكر سخط الإنسان على ربه لمجرّد أنه لم يجد إجابة المنع ذاك.

أتأمل النّاس كيف تغدو وتروح، وأتساءل: «هل يَحرم الإنسان نفسه الطمأنينة أم يُحرم منها؟» فقلتُ يُحرم منها حين يَحرم نفسه سبلها، أتدركين فظاعة هذا يا هيلين؟ أن يسخط الإنسان على ربه وهو هوَ ظالم لنفسه!

أستغرب يا هيلين من تشبّث الإنسان بخيوط الدنيا كأنها منقذته أو مخلّصته، كأنه مرميٌّ بالعبثية أو المدبّر المسؤول عن قدره.

الدنيا ناقصة يا هيلين، تقول للإنسان: «لا تأمنّي، إليكَ عنّي».

لم يذلُّ الإنسان نفسه لها في حين يستطيع تحرّرًا منها؟

في قلب الإنسان كون شاسع، ليس صغيرًا كرسمه، وفكرة أن يحيطه بأمان من هذه الدنيا فكرة مجنونة، إذ كيف لأمان ناقص أن يحوي كونًا مشتعلًا؟ المشاعر التي يبحث الإنسان عنها، أقصد تلك المشاعر التي تروي قلبه، وتجعله في اكتفاء عن مادونها، تلك التي لا تدخل قلبه إلا بتشريف إلهي واصطفاء، لا يجدها الإنسان بسهولة، وما لم يجدها فهو في بحث عن العدم في العدم. يبحث عن كماله في نقص، والحقُّ أن الإنسان لا يكتمل، لكن حين يتوجّه

للسماء يصبح كل فقدٍ عنده صورة أخرى من العطاء، بدل سخطه يقول: «ذهب معنى صغير ليحلَّ العطاء الأكبر الذي يليق بقلب ساعٍ عن المعنى». وقد يكون العطاء الأكبر اكتفاء عن الخليقة للإمتلاء بنعم ربِّ الخليقة. يقول (صلى الله عليه وسلم): «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

الرسالة الرابعة والثلاثون

عزيزتي هيلين...

قيل لي مرّة: «لا تكفّي عن غرس البذور، فلعلَّ ما تزرعينه اليوم يزهر في قلب لم تريه بعد».

يزرع الإنسان يا هيلين، ولا يعلم إن كانت بذوره صالحة بما يكفي لتنبت، وهل النيّة تخلصت من شوائب النّفس لتلقي سحر البهاء على زرعٍ مزهر، أم لم يكن للبذور موعد مع النّور فطمرت للأبد؟!

إذ ليس المعنى بغرسِ البذور يا هيلين، بل بصلاحية تلك البذور للأرض، وليس المعنى بالإنبات بل بثمرة هذا الإنبات.

ما أشقى الذي يغرس فسادًا وهو يحسب أنه يحسن صنعا؟

بل ما أشقى الذي يغرسُ خيرًا فيُرَدُّ لفساد نيّته.

وما أعظم النّفس التي بلغت مراتب الإحسان، فكان بذلها على تبصّر أن الله يرى فعلها فأحسنت ليخرج كما يليق بعبدٍ محب، فتعهده الله برعايته وأثمر على بركته ودام خيره وأثره.

يسمع الإنسان مدحًا كثيرًا ممن حوله يا هيلين، بل قد يزهو بحديقته، حتى يكاد أن يحسب أن البذور من صنعه، والإنبات من فعله.

على الإنسان أن يستحضر أن الله يعينه ليغرس ويهبه ليسقي، ويكتب جزاءه وكلّه منه، يهبه العطاء ويجزيه عليه!

أيُّ كرم؟!

ما أوفر نعمة الله، وما أحظى من يبصرها فيديمها بالإمتنان!

الرسالة الخامسة والثلاثون

عزيزتي هيلين، نمرُّ بمواقف كثيرة نظنُّ فيها أنه لا حاجة لتلقيم نياتنا من الهوى وأننا متى ما أردنا نملك اختيار نيّة صالحة، لكني أدركت أن الوصول لنيّة صادقة خالصة ترضيك ليست كسهولة أن تقولي: «سأضع هذا هنا». فتضعينه!

النيّة نبتة لبذرة غرستيها، والإتيان بها يحتاجُ جهدًا، وتضحية، واستعدادًا؛ لنتيجة ماديّة قد تحزنكِ لترضيكِ خفقةٌ مطمئنة في قلبٍ تحوم فيه السكينة!

لقد لمستُ ألطافًا بأنامل قلبي لا أنسى دفء رحمة الله فيها، ولا صوت اللطفِ الذي أرشدني في طريقٍ مظلمٍ لا أملكُ فيهِ سوى مناجاتي.

لعلّنا بعض الأوقات، نغامر، نندفع، نتجرأ، وقد نكون مقيّدين بقيود وهمية أو جاهلين لحقيقةٍ مخفيّة ولكنَّ اليقين الذي يثمرُ من جوف النيّة بأن الله ناظرٌ إليكِ وسيعوضكِ بنيّتكِ الخالصة نتيجة أكيدة في قلب كل مسلم.

ألا ترين أن هذه الرحلة المليئة بالمعاني مذهلة؟

الرسالة السادسة والثلاثون

كم وقفنا على هذا القلب نذكّره، ونطردُ عنهُ سوآت الدنيا، نبحثُ عن أمنٍ دائم، لا تطالهُ يد اليأس، كم غروباً ودّعناه بأملٍ غض، كم بكينا بيد الحزن، وألحينا أمانياً واسعة، لا نؤتى إلا ما كُتب، ولا نسلبُ إلّا الشر، في الحكمةِ خيرٌ مختبئ، أحبُّ اعتراف المحب أمام محبوبه، وشرح رغبته ولله الأمر، يقدّر ويقضي، أحب استسلام العبد أمام قول ربّه، ونطقه الرضا، ليس تبخيساً لما يرغبه ولكن أولوية المحب، تتفتّح السماءُ لأجنحةٍ خافقة، ويبتسم الوجود لأرواحٍ سماوية...

هيلين يا عزيزتي، في القلبِ كثير حكايا، لا تكتب بل تُسمع، من القلب للسماء ومن السماء لقلبٍ موصول بهما.

الرسالة السابعة والثلاثون

عزيزتي هيلين، لو تأملنا في المعاركِ التي خضناها لوجدنا أن كثيراً منها كانت عبثيّة، لا ترتبطُ بقيمةٍ حقيقية تستحق قوّتنا المهدرة، ولوجدنا أن بعضها كانت تشترطُ حضورنا الكامل، إن شُغلنا –بحكم جبلّتنا- خسرنا

مُحالٌ أن ينتصر فيها من كانت روحه أوسع من أن تمرر في سمِّ الخياط، ومعانيه أضخم من أن تخفقَ في قفص، ورحابته أقدسُ من أن تتقلص بقيدِ الخوف من التالي، إذ أن المعارك يا هيلين، لا تُخاضُ بالقلق ولا يُنتصرُ فيها بالوصول ولا تُحسمُ بالنهاية... لا يهم طول المعركة ولا نتيجتها، إن ما يهم حقّاً أن نقاتل بشرف لقيمة علوية، ولو قتلنا في أول جولة، يوافقها الشاعر بقوله:

"بعض المعارك في خسرانها شرف

من عاد منتصراً من مثلها انهزم".

الرسالة الثامنة والثلاثون

الإنسان متطلّب يا هيلين، مجبولٌ على العجل، مثقلٌ بالأماني التي يبكيها على الأطلال، وقفتُ قليلاً لأكتب عن الذين يهملون نعماً فائضة، ويتربعون في جوف النقص ساخطين، أتساءل يا هيلين عن شعورهم لو حازوا ما بخسوا كل نعمةٍ لأجله، هل سيكونون سعداء حقاً كما يزعمون؟!

كما كتبوا وأجزلوا، وقالوا وبالغوا...

أشكُّ في ذلك، إذ أن الطريق طويلٌ دون الرضى، مضنك دونَ أن تسكن النعم قلوبهم، أدركُ يا هيلين، أن من مدَّ عينيهِ على مالم يُكتب عليهِ فقد سُلبت طمأنينته وتلاشى قلبه، النّاس تتفاوتُ في الأرزاق والأرزاق أوسع من حصرها بزاوية، والله يعطي ما يشاء لمن يشاء، أجزعنا أم صبرنا هل ستتغيّر المعادلة؟!

إذن لمَ يُهلك الواحد منّا نفسه بيديه؟!

أريد إكمال الرحلة يا هيلين، وصمِّ أذناي عن كلِّ حديثٍ ساخط، حدّثيني عن الرضى لتتوسّع المعاني وتأخذ مكانها في قلبي.

الرسالة التاسعة والثلاثون

هذه الدنيا لا تمشي وفق خطّةٍ رياضيّة يا هيلين، لقد جرّبتُ مراراً حسابَ الخطوة، وكنت أحرصَ ما يكون على وضعِ كل شيءٍ في مكانه، لكن ولسببٍ لا أعلمه تنقلب الموازين ويريني القدر صورة أخرى، أحاولُ العملَ لأجلها برضى تام، الأمر متعبٌ ولكنّه مطمئن، اتساءل كلّما اختليت بنفسي، وأصنع الإجابة من الذي لم أبلغه لأنظر فيه ولكن للعبدِ إيمانٌ بحكمته سبحانه، أتدركين وسع الأنس في ذلك؟!

علينا أن نقرأ الخير في كلِّ خطوة يا هيلين، أشعرُ أن العالم بأسره يغنّي معي عند كلَّ خطوة ليُنسيني خيبة مالم أبلغه، في هذا العالم شيء أبعد من أن نطاله وأقرب من أن نحس به وكلّما اتّسع القلبُ كانَ أدقَّ في تعرّفه عليه... لا أريد تفويت أي شيءٍ ينتمي لقلبي يا هيلين، ولو فاتني العالم.

الرسالة الأربعون

لم يتبقَّ للإنسان سوى حسن ظنّه ومحبّته أو بغضه هوناً وتمرير الأخطاءِ والأيام والنّاس حفاظاً على سلامةِ قلبه وهدوئه، وأن يمضي كأنَّ ما فاته لم يلقه أبداً، طاقةُ الإنسان محدودة جدّاً يا هيلين لذلك نحاول صرفها على ما يستحق ولا شيء يستحق سوى ما يزحزحنا عن النار ويدخلنا مساكننا الأبدية.

الرسالة الحادية والأربعون

لم أجد يا هيلين أعظم من أن يحتمي الإنسان بخالقه، في سكناته وحركاته، في غدوّه ورواحه، أسمع عن معيّة الله للعبد وأمدُّ قلبي علّها تطالني، لقد وجدتُ سبلَ الخير، وقطعتُ عهداً قديماً على قلبي، أحفظه ما استطعت، شيءٌ أعلمهُ يا هيلين، أن من عرف الله بألطافهِ وعظمةِ تقديره لا يخيبُ ولا ينكسر، لازلتُ ماضية، مؤمنةٌ أن هناك جزاء لمجاهداتنا الصغيرة، لإختيارنا للطرق الأصعب، وللرحلة كلّها.

وكما أقولُ دوماً: «استمتع بالرحلة ولا تتلف قلبكَ على فانٍ».

الرسالة الثانية والأربعون

يُلصق على الإنسان يا هيلين صفاتاً ليست منه، يسمعها من حولهِ ولا يكادُ يؤمن بها حتى يلمسها هو بأنامل قلبه، وعلامَ يحاولُ الواحدُ منّا أن يرقّع نفسه او يهلكها بكلماتِ الغير؟

إنّني درّبت نفسي على الوقوف أمامي بكل جرأة لأقول لها: «أخطأتِ وأصبتِ هنا وأن ماقيل عنكِ ليس بجدٍ أو موزون أو هو قصد الصواب»، أعلمُ يا هيلين أن الذي يبحثُ عن اكتمالِ القمرِ في قلبي لن يجده، وأنّني في كثير ليال يحلُّ الظلام وأضيع هناك، من الرعونة أن ينتظر الواحد منّا من يجده، ذلك أن من لم يتعرّف على نفسه كيف يطلب تعريفًا لها؟

لم أخش يوماً من النقص؛ لأننا نستطيع تغييره أو تقبّله مالم نستطع، ما أخشاه حقّاً الصورة المثالية التي تُلتقط لنا في أوج تألقنا من يسلبها منهم ويمزقها!
أرى أنّه ليس من الفشل في شيءٍ أن يعترف الإنسانُ أنّه ليس بمستعدٍ ليدخل حرباً أكبر منه، أو أن يختلط بأناسٍ لن يجعلوه أفضل أو لا يقبل بخطوةٍ أبعد من أن يطالها.

قلتُ مرّة: «سأختبئ حتى تمر العاصفة، لست قوياً لأواجهها الآن».

الرسالة الثالثة والأربعون

عزيزتي هيلين، أؤمن أن الشمس لتشرق عليها أن تغرب، وأن العمرَ الذي يمضي لا يمضي معه كل شيء، وأن الفكرَ ليس دائماً وليد الحقائق، أؤمن أن الحياة ليست معادلة رياضية وأنّه ليس لكل خطوة قاعدة.

أجيد قراءة الحكايا على وجوه المتعبين، ونصوصِ الفاقدين، لكن هل كانت الهشاشة تسكننا لدرجةِ أن تكسرنا دمعة؟!

الحس المرهف لا يصلحُ لكلِّ وجه، وأمام عتبة أي قلب يا هيلين!

يقاتل الإنسان يا هيلين، وهو مغمض خوفاً من أن تظهر له صور لطالما فرَّ منها، يقاتل ليس لأنه يريد بل لأنه مجبر.

لكنَّ ضبابَ الروحِ ليسَ سيئاً لذاك الحد، وغياب الشمس لا ينفي معناها.

الرسالة الرابعة والأربعون

يبحث الإنسان عن نعيمه في قلبه يا هيلين، قبل أن يتشرّد في قلوب العالمين، وقد قسمت أرزاقنا لكننا اجتمعنا على نعيم واحد وأوتينا قلوباً متشابهة، لا أحد مترفّعٌ عن الآخر إلا بعملهِ الدؤوب في تحسينه.

قد ينزل الواحد منّا قلباً مؤذياً يرتعد فيه وينتفض وترنُّ أجراس القلق في عقله فلا يجد قلبه ليفر إليه، أتدركين فظاعة ذلك؟!

الإنسان يولدُ ووعاء قلبه ممتلئ، فترينه يقدّم حبّه بطرق غير مشروطة، وكلّما كبر يعي أن لكلِّ خطوة جزاء، وأنه سيدفع ضريبة كبيرة لكن من يقنعه أنها ضريبة حبّه الغير مفهوم!

لو جلسنا وطرحنا سؤالا واحداً: «هل أوذيت من الذين تحبهم أو آذيتهم؟»

سيكون الجواب:« نعم».

ولا يخفى منطق الإجابة على أحد، إلا الذين يلتحفون بصفات الملائك، لأننا بشر، مالم نتغافل لن نصل إلا متفرقين.

شيءٌ أعلمه يا هيلين أنّ الساعين سوف يلتقون على قدر سعيهم، وأنَّ كل الذي عملنا عليه وألقي في لجّة البحرِ لن يضيع، هناك سلالم خفيّة، تمتدُ للسماء، تصعد عليها وتسكن هناك حتّى نأتيها بهجران هذه الأرض.

الرسالة الخامسة والأربعون

نعم يا هيلين، يقف الإنسان ليسأل ويستشير ويتحرّى الرأي الأصوب فيجد تضارباً وتعاكساً في الآراء، بل قد يقع في عقد تناقض لا تنفك، وكلٌّ ورأيه المبني على تجربته أو بيئته، فتجدين بعضهم معلّقٌ في "هذا ما وجدنا عليه آباءنا" متغافلاً عن الظروف المتباينة. هنا لا أتحدث عن الأحكام الشرعية أو الأمور الثابتة التي لا تقبل رأياً.

ليس كلُّ من قال رأيًا لا يقبل احتمالات الخطأ، أو لا يحتمل إلا الخطأ، ولهذا تجدين بهذه الدهاليز المعتمة نور الاستخارة، وحبل السماء، وطمأنينة قد تحذف كل رأي وتفسد كلَّ إجابة، وتضع بقلبكِ يقينَ الإختيار الذي استبعده غيرك، لذلك ياهيلين مهما بحثنا، فإننا في النهاية نفتقدُ للإشارة السماوية، والدعاء هو سرُّ الإجابة، وأملُ الحيارى، ويقين العابدين، أن تدعي ولو امتنعت الأسباب وعجزتِ الحلول، رغم أنه بابٌ للعالمين بيد أنهُ لا يقصدهُ إلّا من صدق وأراد أوسع الأبواب وأنقاها، وعظّم القصدَ إليها، موقناً أن الخيرَ وحدهُ هناك.

لا تدخلي طريقًا قبل أن تسألي الله فيه الخير يا هيلين، سلي الله ألا توكلي لنفسك طرفة عين، وألا تسيري إلا لأجله؛ ليستقيم الطريق، فالخيبة تلازم الطرق المعوجّة.

الرسالة السادسة والأربعون

أدرك يا هيلين، أن الحياةَ تمسكُ عنّا مانحبّه، وتضعنا أمام اختياراتٍ مستبعدة، وتفاجئنا بصورٍ لم نلتقطها لأنفسنا، وتفتحُ أبواباً ما ظننا أن نلجها، وتُبدّل الدعوات حسبَ بوصلة الخيرِ لنا، وتمضي الأيامُ بأسرعَ مما خططنا لإكماله، بعضُ الأشياء ناقصة، وبعضُ القلوبِ فارغة، الطريقُ لا نبصرُ فيهِ أكثرَ مما يظهر لنا، والخطوة بألفِ حساب، نبحثُ عن أراضٍ دفيئةٍ لنحطَّ رحالنا، لكن التبدّل سنّة الحياة، والحبُّ لا يكتملُ دون الصبرِ على أيامهِ العجاف وعواصفهِ الشديدة، الضحكاتُ لا تُرتسمُ على وجوهِ الكارهين، والزهورُ لا تُهدى لغير أهلها، اليدُ لا تعانقُ الأخرى دون رباطِ الصدق، والوصولُ ليس للجميع، ومشقّة الطريقِ حجّةٌ يرتديها الهاربون، على الإنسان أن يقرَّ أنّه عبد، والإقرارُ لا يُحقق بمعرفة هذه الحقيقة بل بإعمالها، ولا تُعمل إلا بقلبٍ خالص لله، لم يُشرك أحدًا معه.

هذا الإخلاص عزيز، أن تفرّغ قلبك من كل شيء ما عداه، ثم لا تدخل شيئًا عليه إلّا لأجله.

هذا المقام ما أجلّه، وما أوفره لنفسٍ لا تمتلئ إلا به، ثمَّ ما أخصبه من مقامٍ فيّاضٍ بالمعاني غزير بالحب، الحب مدعاة للعبودية، والعبودية تصنع للحب قلبًا فريدًا ليليق بحمله، فما رأيت قريبًا إلا وقلبه منجيه وما رأيت بعيدًا إلا وقلبه

مهلكه، فاللهم آتنا قلبًا سليمًا، وروحًا توّاقة إليك، وفكرًا لا يؤرقه إلا سؤال:

«كيف أحظى بمحبتك؟»

الرسالة السابعة والأربعون

تقول أمي: «إن طال بكِ السهر فانشري الغسيل».

كنت أخاف الظلام يا هيلين، ولكنّي كفتاةٍ كرّه إليها الجبن جاهدت خوفي أيام طفولتي، كنت أتخيّل أنّ قلبي يضيء والملائكة على جنبي تحرسني، فأقول: «ليس لديك حجّة للخوف بعدها»، على ذلك الخيال كبرت، ولكنّي كنت محدودة الخوف، لم أعتقد أن السير في طرقات الحياةِ في وضح النهار يتطلّب مجاهدة الطفلة التي تغلبت على خوفها من جنح الظلام،

أصل للمكان، يغلب البرد الدفء، أنسى تمام مهمّتي بكرة الأفكار المعقدة تارة وأخرى بخيالٍ يستولي على عقلي، كأنني في عالم غير العالم وقلب داخل القلب، القطع لم تُنشر كما يجب، إن سئلت أقول: «أفكاري عبثت بها».

أجد نفسي قد انتهيت، أقتربُ من السماء وأتنهد، ياللسماء، هلّا أشفقت على قلبٍ ماعاد يسعه تراكم الشعور؟

أقول، ياسلام، أنت مؤقتة هنا، هل تدركين؟ أرى النجوم لامعة في حضن السماء، والغيوم في غدو ورواح بأمر ربها وأنا كذرّة ضائعة في الوجود، إن ناديت: «يارب»، سمعني، هل يدرك الإنسان يا هيلين، أي قيمةٍ يكرّم بها حين يسمعه ربه؟

أصابعي تجمّدت، أقول: «يا قلبي هلّا أضأت؟ لأجل أن أبصر الطريق؟

ليس طريق الليل، بل طريق الحياة».

الرسالة الثامنة والأربعون

يتفرّغ الإنسانُ من أثقالهِ الحياتية التافهة؛ ليحلَّ مكانها أثقالاً ما تفتأ تصعّب عليه خطوته وتحذّرهُ من سقوط مفاجئ، سمعت صوتاً يقول: «الطريق وعر، إن مضيتِ فهو صعب وإن توقفت فأصعب، من قصد السهل تعب ومن قصد الصعب استلذ بالتعب».

سنين طويلة كانت تتحايل علي؛ لتسرق قلبي وترميه طعماً لليأس يا هيلين، ولكن مادمتُ خرجتُ بقلبي فجميع مافقدته كان عبثياً، الآن كلّما ارتميتُ بالتعب شدّني الصوت: «لا تفلتي»، مجاهدة الإنسان يا هيلين ليست مهمّة نؤديها، بل معنًى بصنعنا له يصنعنا وعلى قدر مشقّتها نستحقُ قيمتها حتى نكون نحن المعنى، كلّما خرجتُ من حرب دخلت بأخرى أشد بأساً، ليس لأنني محاربة قويّة بل لأن الحياة ترميكِ بنارها، إن شئتِ ألا تحترقي فلا تستسلمي، وهذا بالطبع اختيارٌ قاسٍ لكنّه الصحيح!

لقد أسرفتُ وقتاً طويلاً في حسابِ خطوات كثيرة، لم أجد حلولاً سهلة تفضي لنهاية ذي قيمة أبدية، كلّها بلا استثناء شاقة، تحتاج بذلاً وتضحية، ولكن من خلق لأجل ذلك كيف يبخل عليه؟

الإنسان يا هيلين، لا يؤسَر إلّا والمفتاح في يده، مادام قلبه يخفق فالصوت مازال حياً يؤزه للتحرر، لم اؤمن يوماً بترهاتِ الأقفالِ المصنوعة من الوهم، قد تبدو أكثر صلابة من سجن مادي ولكنّها تلين حين تقرر أنكِ لن تكون حبيسها.

أعلم أن الحياة لن توافق أن تتفق معنا في كل شيء، وأن الأرض لن يحتلّها الصقيع للأبد، وقد لا نصل للأرض التي شددنا رحالنا إليها، قد تنتهي الرحلة قبل أن تبدأ، ولعلّه لأجل ذلك قد قيل: «الرحلة فردية».

فردية حتى تخطو مع من تنتمي إليه.

الرسالة التاسعة والأربعون

لماذا لا تكون الدنيا أسهل مما هي عليه؟

سؤال طرحته على نفسي في فترة أقل وعيًا، يمكنكِ أن تفكّري في أيامكِ التي انطوت، وأحزانها التي ما لانت لكِ، لعلّك اعتقدتِ أن الحياة بعنفوانها ضد قلبٍ ضعيف معادلة محسومة، يمكنك استرجاع اللحظات التي بكيتِ فيها، وحين تكورتِ على نفسكِ، لليالي التي اخترتِ فيها الوحدة، والضربات التي لم تتدرعي لها، هي أنتِ بحقيقتكِ، لمَ نفر منها يا هيلين؟

توهم من قال: «أن الإنسان يكبر فجأة»، بل هي رحلة تراكمية مكلفة.

ونحن نخيط ما ثقبته الدنيا، ونقطف المعاني في مناكبها، ونسعى فيما قدّر علينا قد نتوهم أن شيئا قد فاتنا، هذا وقتنا يا هيلين، لن نفسد معنى اللحظة، ولن يشغلنا الصخب.

أخشى التوقف يا هيلين، أكثر مما أخشى المضي لخطوة صعبة، التوقف لغة قاسية، تخبر القلب أننا وقعنا أسارى لليأس، أما المضي فهو خطوة شجاعة، تخبر القلب أن في السماء إله كريم، يعين من توكل، ويرشد من طلب الإشارة، ويعرّف المجهول، ويَهبُ الخطوة معنى وجزاء، وما الحياة إلا مجاهدة ومصابرة.

ليسأل الإنسان نفسه: «كم مرّة كدتَ أن تقع فأمسكتك عناية إلهية؟ وكم مرة رغم تيهك اهتديت؟ وكم مرة في ظلمتك أوقدت لك القناديل؟ كم مرة طلبت وأُجبت، واسأت الظن فعُذرت، وقسوت فرُحمت، ورغم أنفكَ سُقت للخير؟»

هل تفكّرنا يوماً بالمعية التي صاحبتنا؟

لقد أزهرت الأرض من دموعنا، وصار لدينا موطن شهدَ قتالنا، الأمر لم يكن سيئاً كما ظننا.

الرسالة الخمسون

أتذكرين يوم لقائنا يا هيلين؟

كانت الديار آمنة، والزهور متفتحة، وقول البستاني: «قوّة الفراشة رقّتها».

حينها ترتبت الفوضى، ولم يجرؤ اليأس أن يسود، أشرقت شمس دافئة، وهدينا بذورًا، وتسامرنا، أتذكرين؟ حين نسجنا المعاطفَ على لحنٍ شجيّ، وتبادلنا أدوار السقاء، لإقحوانة واحدة وياسمينة؟ خشينا موتهما، وتخالفنا، لأن الأملَ تناقضَ تعريفه في قلبينا، وأكملنا، بدون قوة سحرية، ولكن بحب صدق، وهذا يكفينا بقية رحلتنا، أليس كذلك؟

ساد الظلم فحلكَ الظلام، تباعد ما بيننا، محيت الطرقات، وقتلوا الفراشة والبستانيّ، وسالت الدماء، بدل الماء!

وتفرّقت الأشلاء بدل أوراق الخريف، شهدتِ الموت، وتعشعش القلقُ داخلي وبكينا، دموعًا لا تجف، كشمعةٍ تذوب، اليوم بعد المئة من الحرب أستطيع أن

أسترقَ لحظة وأستجمع قوتي وأكتب لكِ، ألا تتعرّضي لليأس فيسلبكِ، وألا تقطعي عني طمأنينة الخبر، ابتسمي للسماء، ستصلنا في حين بخلت الأرض.

الرسالة الحادية والخمسون

بعض الآلام يا هيلين لا تفسح فرصةً لشرحها.

والصمت نبأ رغم صدقه حزين، أقدّر سطوة الألم وانسداد النّفس بالحزن.

أمدُّ يدي وأطلق مسمعي وأترقّب قدومكِ، في تنفّس الفجرِ وذوبان الشمس وطول الليلِ الذي لا تشاركيني إيّاه، قبيل الحربِ أخبرتكِ أنّني سأبدأ بترتيب موعد نومي وأعطي لنفسي حقّها بسكن الليل، فشل مخططي للمرّة الألف، أيسكن الليل داخلي بأحزانه وهمومه الآن؟ أخبريني كيف تغفو عين على ضخب قلبٍ قلق متأوه؟

يالعجبِ نفسي من نفسي، ويالعجب الليلِ من ليلٍ يشابهه، غير أنّ فيه النّجوم والقمر وأنا شرارة قلبي المشتعل، باسم الحب بيننا أحاوطكِ بالأدعية، وأعرّف بأني لحوحة برجاءِ رعايتك، لأني لا آمن غفلتي، أستودعكِ ربّي، لحين تنتهي هذه الحرب الشرسة ونعيد زرع حديقتنا، كوني بخير لأكون.

الرسالة الثانية والخمسون

يا هيلين، هذا وقتٌ يفضي القلب فيه حديثه للسماء، ويرسل لأحبتهِ أدعية مخبوءة بلا عنوان، أليست الأدعية وصلًا عجيبًا؟

لا أدري عمّا تقاسينه بمفردكِ الآن، وهل للأحزان سطوة عليكِ أم استطعتِ الإختلاس عليها؟ أين نذهب؟ هل في الأحلامِ متّسع لنلتقي هناك؟

أخرج للسماء، كإجابة صوتٍ يناديني، لعلّه قلبي، لعلّه قلبكِ، أو شعور يريد فرد جناحيهِ بالفضاء، يسلّيني أننا كلانا تحتها، نؤنس القمر الوحيد.

يتردد صوتك في أذني: «لا تحزني»وهل يملك الواحد منّا قلبه يا هيلين؟ مشاركتكِ الحزن أجلُّ من فرحةٍ لا يطالها قلبك، وهل للشعور معنى دونَ مشاركته من نحب؟!

ما أصعب البعاد يا هيلين، سلوتي أنّكِ بخير، وأن الوصلَ لا ينقطع مادامت السماءُ تجمعنا.

الرسالة الثالثة والخمسون

يبدأ الإنسان حياته ووعاء قلبه ممتلئ، يهب منه لكل شيء حوله.

يكبر فيعي أن قلبه هذا يجب أن يغلّف بالوعي، حتى يكون سدًا للأذى، أو على الأقل ليخفف من وجوده، يكبر أكثر فيدرك أن الوعي وحده لا يكفي بل يجب أن يغمّس بالوحي؛ فالوعي الذي ينمّى في أرض نائية عنه ليس كالوعي الذي يسقى منه، الأول يشوبه الهوى فيكون معوجًا متلصقًا بالأرض، والثاني أصله ثابت وفرعه في السماء يؤتي ثماره كل حين.

ولك أن تقارني، حين يُؤذى الإنسان وهو عبد لله كما لو يؤذى وهو عدوه؟ بل كيف لو كان من أوليائه؟

"من عاد لي وليًا فقد آذنته بالحرب".

من يُقيمه في الأولى وفي الآخرة؟

اختبارات المسلم تختلف عن غيره يا هيلين، ذلك لأنه يُختبر بمعانيه التي تقصد أعظم مافيه –وكم اختُبر في قلبه – بخلاف غيره، فإنه يُختبر كونه إنسانًا في دنيا المشقة. وقد تكون تلك الإختبارات قبس النّور الذي يهديه لركن الله، وتدله على معنى طريقه، وتهمس له: «مراراتك هنا أفراحٌ هناك».

قد يخطو المؤمن خطوة لله في دنيا النّاس، يحمل في صدره اليقين، فيُختبر في يقينه نفسه، خطوت بذلك اليقين فهل ستثبت عليه ولو لوحدك؟

والمؤمن مسلّم لله، قد لا يدرك حكمة الله في اختباره، لكن قد يكون تسليمه هو الحكمة كلّها، مالم تجد الإجابة هل ستبقى مسلّمًا بخيرية الحاصل؟

يقول ابن عاشور: «من فوّض أمره لله لا ينبغي أن يتعقّب تدبيره».

جلستُ اليوم لمجلس فيه امرأةٍ تحمل عوض الله الجميل بين جوانحها، تخبّر عنه ودموعها تسبقها، وتؤكد أن عوضه كانت تراه قبل تحققه كأنّه حاصل، ولم تشكَّ يومًا أن الله قد يخيّبها.

أحب أن أشهد هذه اللحظات التي تتنزل فيها الأمنيات، وينفتح الباب، ويبشّر القلب باستجابة الله وسماع تفاصيل الرحلة التي بدأت باليقين وانتهت بالإجابة، بل وامتدت.

ليس المقال بما نجنيه من اليقين هنا يا هيلين، فالله يختبر ويُعطي ويمنع حسب تقاديره وحكمته ومبلغ علمه. بل بكونك أَمة لله-، يدبّر شؤونك ويحرّك الأسباب ويجري الأحداث وينظم الأحوال لأجلكِ، ولو خالفتْ رغباتنا، أليس بتدبيره مواساة كافية لنكون ممتنين شاكرين حامدين؟!

تخيلي يا هيلين، عظمة أن تكوني ذات قيمة عند الله، لست متروكة لنفسك، ولا مرمية بالعبث ولا متخبطة في الظلمات.

كلٌّ منّا يبحث عن هدأة نفسه، ويحطُّ رحالهُ حيثُ تسكن أفكاره وجوارحه ويرى بعينٍ تنضخ بالحب لتطبعَ على كلِّ معتادٍ ذهولاً بريئاً، أنظرُ للأنفسِ التي

اجتازت رحلتها الشاقة، وأتتبعُ تنهيداتٍ مدوّن عليها قصصاً عيشت، أحبُّ الجلوس أمامَ الدروس الحيّة لأتعلّم ترجمة الشعور، وأحب أن أسمع كثيراً عن اللحظة المعاشة، عن الأبطال الذين وصلوا وفي قلوبهم أراضٍ لم تسحق، يسحرني أن أقرأ على ملامح الأحياء ما ارتبكوا بشرحه.

الإختبارات تصقل المؤمن لا تكسره يا هيلين، تزيد فيه المعاني لا تقتلها، تزيد إدراكه لمسؤولية أن يحفظ قلبه في عالم كهذا.

أرجو أن تستمتعي برحلتكِ يا هيلين، وأن تتلطّف بكِ الأيام وتُفتح لك المسالك ويأنس بكِ ما أنستِ له.

الرسالة الرابعة والخمسون

عزيزتي هيلين، يكبرُ الإنسان ويده على قلبه، وقلبه متّصلٌ بكلِّ حَدثٍ عابر.

اليوم خفق عصفوري بشدّة، لكن ذلك تسبب بأذية جناحه وكان مسببه الخوف من الرعد، لا أدري بمَ يواسي الإنسان كائنًا لا يفقه ما يقول؟

لكنّ العطف لغتي معه، هو لا يُريد أن يفهم ما أقول، بل أن يأمنَ معي.

لطالما تساءلت يا هيلين عن حال قلبي، هل هو آمن بما يكفي؟ وهل بالضرورة أن يجدَ الإنسان قلبًا رئيفًا ليريه انعكاسه؟!

الخوف معدٍ يا هيلين، لكن ليس كالحزن، قلب المحبِّ يتوسّع بالأمن حين الخوف ليزمّل محبوبه لكنّه لا يملك السعادة حين الحزن ليواسي محبوبه، بل يُعير عيناه ليبكي فيهما والسعادة معيبة في حضرة الحزن المهيب أو الألمِ المتأوه.

هيلين، يسير الإنسان ومع كل خطوة يقول: «لعلّها الأخيرة»، لدربٍ يظنُّ أنه مفضٍ لآخر والحق أن طرق الدنيا لا تختلف إلا في صورتها، فمعنى الكدِّ موصول به، معلّق في يده، ثقيلة بها نفسه.

إن ما أريد سؤالك عنه: «هل الدنيا تحاول أن تقتل مشاعرنا أم تجرحها؟

وهل لو جُرحت سينمو فيها الزهر أم ستبقى مفتوحة نازفة؟

وهل يختار الإنسان الإجابة ويصنعها أم يُجيب حين يعيشها؟»

هيلين، هل جرّبتِ يومًا أن تحفظي فراشة داخل معركة طاحنة؟

هذا بالفعل كما لو يُريد الإنسان حفظ قلبه في هذه الدنيا، إن حظيَ بسياجٍ متين من السماء.

إنها لأعجوبة أن ينجو الإنسان بقلبه، لكن تخيّلي فاجعة أن يركض الإنسان حتى يصل لنهاية الطريق، وقلبه ليس في صدره وأنَّ ما كان يحمله كان ثقل دنيا، والقلب عالق بين صخورها أو مدفون بترابها!

لو يعلم الإنسان يا هيلين أنّه فائز عند ربه لأحبَّ الذهاب دون التحسّر على يوم في هذه الدنيا، لكنّه مسكين فقير، لا يعلم إن كان حظيظ بالرحمة أم مستحقًا للعذاب!

هيلين، هذا بريدي لهذه الليلة، أعلم أنه لن يصلكِ إلّا متأخرًا، لكن لا تنسي تضميد جرحك الذي أخفيتيه عني.

الرسالة الخامسة والخمسون

عزيزتي هيلين، كل لحظة تمضي من الإنسان يستحيل أن تُعاد، وكل فرصة تتسرّب منه يصبح أمام احتمالين لا ثالث لهما، إما استحالتها أو بذل جهد مضاعف لإدراكها. ذلك أن من ألف التفويت يقتله الأسى، لذلك أحب أن أطمئن أنني لم أكسر غصنًا ولم أسلب ثمرًا ولم أفوّت سببًا.

آتيكِ باعتراف من الأرض التي نطقت: «لا تنسى الأرضُ من أحسن إليها ».

المُحسن يا هيلين منتصر دائمًا، إن لم تسعفه الدنيا حملته معية الله وأغنته عن كل سنبلة مئة حبّة.

الآن أجيبكِ عن سؤالكِ الملح: «لماذا تتعبين نفسك؟»، إنّني أرضي الضمير حتى لا يصرخ بوجهي نهاية المطاف، لا أحبُّ حملَ الأيام على كتفي يا هيلين علاوة على قلبي، ولا الوقوف الطويل، لأنَّ الوقوف يصنع الندب في القلب، وأنا أريد قلبًا خاليًا منها، أحب التخفف قدر ما أستطيع، وأن يمرَّ عليَّ النسيان كل حينٍ ليحمل عنّي صفحات الأيام ويطويها في جيبه، أحبُّ صوت الغد، والأمل الذي لا يدفن في خطوة، وعهدي لزهرة ذبلت أمامي: «لن تموتي مادام معناك نبت داخلي».

هيلين، هل يُلام الإنسان على قدره؟ وهل يُترك في مهبِّ الرياح ليُقلع؟ أليس هناك مأوى خفي يستطيع إدراكه؟ بلا، بلا إذن لمَ تقدّم الناس قلوبهم قرابين لليأس؟

الأيام لا تمضي كما يُحسب، والخطوة قبل حسابها لا تتغيّر، شيء داخلكِ يقودكِ للقدر، إمّا أن تصالحيه أو تواجهيه، ويقال: «كل من دخل تلك المواجهة فقد قلبه».

يا هيلين، جميعنا نعلم أنه حين يختار الإنسان وهو موكل لنفسه غير متوكل على خالقه تصفعه الدنيا، لكن أن تصفعه وهو لم يخطو قبل أن يسأل الله فهذا هو جوهر الإختبار والنّور الذي لن تتعرّف عليه قبل أن يتعرّف على أعمدة قلبكِ، أقويّة هي أم متزعزعة؟

ما زالت غرائب الدنيا تتكاثف في عاديّتها، وتفتح المفاجآت تواليًا وفي ذات يوم نستيقظ على السؤال الأكبر: «كيف مضت الأيام بكل ماكانت تحمله من كثرة؟»

لا يهمني يا هيلين ما ستؤول إليه الأحداث نهاية، ولا يعنيني أين سيودي بي المطاف، كل ما أريده ألا أفجع بقلبي ولو حاولت الدنيا إفجاعه.

الرسالة السادسة والخمسون

تفكير الإنسان محدود يا هيلين، لولا أن الله عرّفه وألهمه رشده ما فقه شيئًا.

أنظر للسماء البعيدة، الكواكب والنجوم سابحة فيها وأقول: «سبحانك لولا أن الله أخبرنا بقربه، لظلّ السؤال يسكننا: أهو قريب؟»

أكان عقلنا ليدرك قرب الله؟ وتأملي معي آية الله,

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

المؤمن يوحشه البعد، ويعنيه القرب يا هيلين، وقد سأل أعرابي قبلنا ليسكن قلبه: «يا محمد، أبعيدٌ ربنا فنناديه أم قريب فنناجيه؟».

فتولّى الله الجواب بذاته العليا، فأنزل الآية.

يالها من نعمة شريفة، تعفي المؤمن من قلق السؤال وخوف البعد، إذ من له غيره قويٌّ يلجأ إليه، كريم يرتجي منه، لطيفٌ يحنو عليه.

رغم بعد السماء، نؤمن بقرب الله، ياله من إيناس دافئ!

نظرة الإنسان ماديّة، تطلب المحسوسات، إلا أن الله جعل لروحه ممرًا لحياة أخرى، يلفته فيها إلى معاني القلوب، وطرق التسليم، ورحابة الحياة خارج هذه المادّة ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ قال السعدي: «بطمأنينة قلبه وسكون نفسه وعدم إلتفاته لما يشوش عليه».

سلي الله يا هيلين ألا تتصدّع قلوبنا بفاجعة البعد عنه.

الرسالة السابعة والخمسون

الإنسان يا هيلين، مكتوب عليه السعي في هذه الطرقات الشاقة، وكلّما صعّبت نفسي عليَّ الخطوة كنت استحضر آلام النّاس وفواجعهم، إذ أن المشقّة تتفاوت، فمن يسلك طريقه معافًا ليس كمن يسلكه مريضًا، ومن يسلكه فاقدًا ليس كمن يسلكه مع أهله وصحبه، ومن يسلكه والدنيا خراب ليس كمن يسلكه والظروف مهيأة له.

لكنّي بعد حين استحضرت معنى أعمق، وهو توفيق الله ومعيّته ومدده لعبده، لأن الطريق لا يسهل بالمقارنة بقدر ما يسهل بمدد الله.

إذ قد تكون الظروف مهيأة والطريق سالك لكننا لا نوفّق، وقد تكون كل العوائق أمامنا كالجبال ويزيحها أمر الله فيتمهّد الطريق لنسلكه كأن الأرض تعرفنا، قد يفتخر الإنسان بصنيعه، ويرفع رأسه متكبّرًا، وينسب عمله لنفسه.

قد يظنُّ أن قوّته مستحقّة، أو مصنوعة من تجاربه الخاصّة التي بصّرته النّور وأرشدته الخطوة، لكن هناك ماهو أعمق من كون القوّة نتاج شخصيّ يا هيلين، أستحضر موقف ذي القرنين حين بنى السدَّ الضخم، لم يفتخر بقوّته ولم ينسب عمله لنفسه، بل تبرأ من قوته إلى قوة الله، وذكر الله في هذا الموقف وشكره إذ قال: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾.

المعنى ليس في العبور وحده، بل بما حزناه من ذلك العبور وإلا فالعبور نفسه نقمة علينا، مهما كان طريقكِ شاقًا، تذكّري أن الله جعل مع العسر يسرًا، ذاك العسر مهما شقَّ عليكِ هناك يسر يصاحبه.

الرسالة الثامنة والخمسون

"لماذا قد يكون خيار النور عصيًا وخيار الظلمة مستساغًا للنّفس؟"

تساؤل دار بعقلي حين رأيت بعض النّاس يختار طوعًا أن يكون في الظلمة، لا شك أن النّور لا تؤتاه النّفوس التي تخلد للأرض يا هيلين، ولكن تبعات الظلمة أيضًا مهلكة للنّفس.

كتبتُ مرّة: «طريق الهاوية سهل، لا يبذل الإنسان فيه بل يدفع ثمن انزلاقه».

وهذا لو تفكّر فيه اللبيب لأدرك أن مشقة الطريق لا تعدل أبدًا عذابات الهاوية التي يسوق الإنسان نفسه إليها، لمَ يختار الإنسان هلاكه في حين لو تتبع النّور أفلح؟

النّفوس طينية، والأرواح سماوية يا هيلين، وريثما تركت النفّوس لجبلّتها شردت وأهلكت، وكلما زكّيت أفسحت للروح لتخفق حول العرش.

يقول ربنا: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾.

يقول سيد قطب في تفسيرها: "إن الإيمان نور يشرق به كيان المؤمن أول ما ينبثق في ضميره، تشرق به روحه فتشف وتصفو وتشع من حولها نورا ووضاءة ووضوحا، نور يكشف حقائق الأشياء وحقائق القيم وحقائق التصورات، فيراها قلب المؤمن واضحة بغير غبش، بينة بغير لبس، مستقرة في مواضعها بغير

أرجحة؛ فيأخذ منها ما يأخذ ويدع منها ما يدع في هوادة وطمأنينة وثقة وقرار لا أرجحة فيه، ثم يمضي في طريقه إلى الله هيناً ليناً لا يعتسف ولا يصطدم بالنتوءات، ولا يخبط هنا وهناك، وما يترك الإنسان نور الله الواحد الذي لا يتعدد، حتى يدخل في الظلمات من شتى الأنواع وشتى الأصناف".

ومن يجاهد بصدق ليحظى بالنور يؤتاه.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾.

الرسالة التاسعة والخمسون

عزيزتي هيلين...

لقد قضى الله أن تكون سنينًا عجاف، تحت اختبار شديد، حتى البلاد لا تجدي فيها ملاذًا آمنًا، أرض مضطربة بالفتن، متزلزلة بالغضب، نبحثُ عن رقعة لإيماننا، وسكينة نطلبها على أكف الضراعة، ومأوى سماوي نركن إليه، وعصف الحزن؟ هيهات يا هيلين، أن ينفك الإنسان عن الحزن، إذ أنه لو لم تكن أسبابه خاصة فيه كانت فائضة عليه ممن حوله، حسب المؤمن أنه مأجور على مشاعره، والجزاء الحسن مراد الساعين.

مجددًا الدنيا يا هيلين، هاهو العيد على الأبواب يطرق، سنفتح له طاعة لله وقربة، إنّما سؤالي: «كيف يتلاقى الحزن مع الفرح في واحةِ واحدة؟ هل يغلب أحدهما الآخر؟ أم هل يتناغمان؟ أم أن الفرح يخشى الإقتراب من القلوب المتصدعة؟ أم هل يحن إليها فيأتيها برسالة من السماء تحكي وهي تضمد جرحه».

استبشر بالخير فالصبح قريب!

الدُّنيا شاقة يا هيلين، لكن المؤمن على قدر اتساع منظاره للآخرة تصغر الدنيا بعينيه، طريقٌ بالكاد يحصي الإنسان سنينه فيه ليجد نفسه يُسأل أمام ربه: «ما فعلت؟».

أكتب إليكِ من مكاني المعتاد، تحت السماء وقربها، وأفتقدكِ جدًا كلّما نظرت إليها.

الله أكبر، هذه الكلمة التي نرددها في أحب الأيام إلى الله، يالتأثيرها على قلبِ المؤمن، ليرددها مؤمنًا بها حتى يحط رحاله في الجنّة، هذه سلوته، أن الله غايته، لأجله يصابر وبه يجاهد وله يعيش.

كوني بخير لأكون، هذه أدعيتي مغلفة بالحب، طريقها السماء، أحب الطرق لقلبي.

الرسالة الستون

كلّما زاد وعي الإنسان زاد إدراكه؛ لثقل الحمل ومسؤولية الخطوة، لقد قصدت المعنى ولكنّه أليم يا هيلين، معنى أن تفقهي حقيقة الأشياء حولكِ.

هل سمعتِ عن زائر خفيف استظلَّ تحت شجرة ورحل؟!

يودُّ كل منّا أن يكونه.

كتبتُ مرّة: «أن تحيط بالمعنى غير أن تعيشه وأن يقصدك غير أن تختاره».

رغبة الإنسان تحرّكه ولكن لحدود ضيّقة، باسم مركزي (دنيا) بمسمّيات سمّاها الله "لعب ولهو وزينة" نصطدم بالفناء، كل شيء حولنا هالك، فنذرف الدموع خوف التيه، أي باب نأمن الفرار إليه إلّا باب ربنا؟

إن ما يحرّك الإنسان لغايات نبيلة ليس رغبته وحدها يا هيلين، لأن الرغبة تنطفئ بمشقّة الطريق، ما يحرّكه هو إيمانه، الإيمان يغلب مادونه، قد يقف الإنسان أمام خطوة استثنائية فارقة، فيظن أنها الوحيدة، ريثما خطاها وصل، ولكن أي طريق يُجتاز بخطوة واحدة يا هيلين؟

إنه درب طويل، بلا رصيد الإيمان لا تتولد المجاهدة ولا يجيبك الصبر.

هناك حلقات ناقصة، ومعانٍ تحتاجُ صقلاً، لا نجدها سوى بالسماء.

مأمورون بالسعي لإيجادها، حتى ذلك الوقت لا تفقدي قلبكِ، ولو خيّرتِ بين أذيتكِ أو قتل معناكِ فاختاري الأولى فعيش المرء دون معناه كموته.

الرسالة الواحدة والستون

سلام عليكِ من مكان متناءٍ، لا تنطوي فيهِ أرض، ولا تقصرُ مسافة، هذه السماء فوقنا، بنجومٍ لمّاعة، وغيوم متنقلة، اسألها عن وجهتها لتحمل إليكِ رسالة.

تقولين أن الدنيا باتت موحشة، والطريق للسماءِ طال، والقلب متشوّق لخيام الجنانِ، ونعيم الأمان، وارحمتاه لقلبٍ محب يكمل رحلته وحيدًا،

لقد قدّر أن تعزلنا الدنيا عن الوصال، وتبادل المراسيل، فكنت وحيدة وكنت مستوحشة بوحدتكِ.

أسألكِ: «هل يختار الإنسان الوحدة أم يضطر لها؟».

فتقولين: «يختارها مضطرًا».

كمية الآلام هذه لا تسمح لبشرٍ أن يجرّها للبوح،هي أثقل، بدل أن يستنزف الإنسان في إخراج صخرة من سمِّ الخياط يبقى صامتًا، هذا الصمت، أسمع صخبه، ليتهُ يسكن للحظة، أحب أن تشهد النجوم حديثي إليكِ، وأن يلتقط القمر ذكريات لنا. أقول أنني سألتُ الزهرة صباحًا إن كان وصلها بريد أمل فتبتسمين، أخشى على الزهرة من وهمٍ كاذب يا هيلين!

لا نملك سوى أن نجمّل آثار الحزن، ونزرع الخدوش زهورا، من كان يتخيّل، أن يكون وصلي الوحيد معك هو الدعاء يا هيلين؟

في ودائع ربي، ابتسمي للسماء لأبتسم لكِ.

الرسالة الثانية والستون

لحظات الظلام الأخيرة، أتقصّد الكتابة إليكِ في هذا الوقت، النّور يمسحُ الظلام رويدًا، بيننا جدارٌ شاهق، لكن الشمس ستشرق على كلانا، أستطيع سماع صوتكِ، والشعور بأنكِ هنا يا هيلين، كان الزمان سريعًا، ولم تكن أحاديثنا تسع ليلًا بطوله، أمّا الآن فيا لطوله بالحزن وأرق القلق، لكلِّ منّا ليلٌ مختلف، يعيش قسوته منفردًا، لا بريد والبريد مكدّس، لكنّه لا يعني مالم يكن لكِ حرف بينه، تخبرني أمّي: «أنّها لا ترى القمر إلّا حزينًا»، منذ خلق آدم وهو شاهدٌ على هموم النّاس، وفواجع الدهر وحديث المكلومين، لطالما حاولت إيجاد هذه الصورة فيه دون جدوى، بل كنت إذا فرغت من الأمل نظرت إليه، ولكن الآن، حزينٌ يا أمّي، أراه كما ترينه.

انظري يا هيلين القمر رغم حزنه لم ينطفئ، ظلّنا لن يبقى في الظلام،وكلماتنا لن تبقى وحيدة، أرعى حسن الظن مع الياسمينة، والأقحوانة التي زرعناهما في قلبينا، ستزهران قريبًا ولو بالدموع.

ها هو النّور يعانق الوجود، وخيوط الشمسِ تخترقُ الظلام.

صباح الخيرِ، يا صديقة!

الرسالة الثالثة والستون

عزيزتي هيلين...

لا يدري الإنسان أي مكان سيكون مكتوبًا عليه ليعيش فيه، ربّما لأيام، لشهور أو لبقية عمره!

القدر يسوقنا كل يوم لتحدٍّ جديد، ويضعنا أمام مواجهة جادّة، علينا أن نكون مستعدين دومًا، الجديد يجعلني في حالة قلق، كأن خطرًا يحدّق بي، في حالة فوضى دائمة حتى أعتاد، الاعتياد الطويل قد يصيّر الأمور مألوفة والإلفة تهب رسالة: «لا تخافي».

لكنّي أدركت مؤخرًا يا هيلين، أنّه ليس الخوف في الجديد، إنّما كل الخوف من أن يَكشف المألوف وجهًا موحشًا في دائرة أمنك. هذه معادلة لا يمكنك تخمينها في عالم البشر، عالم الخطأ والتقلّب والنقص.

حتّى يصبح الإنسان قلقًا وحذرًا كل وقته وليس مجرّد توقيتٍ ينتهي بالإختبار، حالة القلب المضطربة لا أحبها يا هيلين، لذلك أحاول أن أبحث عن مساكنٍ آمنة أحميه فيها ليبقى ساكنًا مهما اضطربت المحن من تحته.. هذا منال صعبٌ بلوغه بكماله، لكن المجاهدة في طريقه ما يزيد قلبي إلّا شوقًا لبلوغه، بمعيّة الله ومدده.

لا أحبُّ المبالغة في الشعور يا هيلين، اقرأ عن الحكمة التي يهبها الله لعباده، أحبُّ أن أستقي منها وأتتبع آثار من يؤتاها، حتّى لا أفسد المنطق بعاطفتي، ولا أجرح عاطفتي بصلابة المنطق، إنّه إتّزان صعب، لكن بدونه لا يصل الإنسان إلا لنثارة المعنى وأنا أريد المعنى، كل المعنى.

الرسالة الرابعة والستون

عزيزتي هيلين، بعض الأقدار تختبرُ يقيننا، وكأن الله يقول لنا: «حملت اليقين بانكشاف السبب، فهل تحملينه بخفائه؟»

ولا يزالُ الإنسان في الدنيا يبتلى، فيبعد تارة لإختبار صبره، ويقرّب تارة لاختبارِ إيمانه، ويُعطى تارة لاختبار أمانته، ويُحرم تارة لاختبار طاعته.

يُختبر في اندفاعه، وسكناته، وشعوره.

اليوم كنت أقصُّ على الطالبات معاني قصّة سيدنا موسى، حين خافت أمه عليه أمرها الله أن تلقيه في اليم، العقل لا يستوعب هذه المعادلة دون الإيمان، تخاف فتلقيه؟

كأن الله يريد أن يختبر عبوديتها التي تحمل اليقين في حفظ موسى، ألقته لتحميه من فرعون فيقوده الله إلى فرعون بل ويرعاه، خطط الله تختلف عن خططنا يا هيلين!

الإنسان لا يحصّل يقينه دون التجارب التي شهدها، ولمس آثار رحمة الله فيها، وأبصرها بقلبه، مسكينٌ من مرَّ على كبد الدنيا دون جني ثمرة المعنى، ومضى كأي شخص انتظر الشمس لتشرق دون معرفة معنى النور، ثم إن التعرّف على فلسفة الحياةِ لا تقلُّ أهمية عن عيشها، فقراءة المكتوب غير عيشه، وعيشه بقلبٍ فارغٍ ليس كعيشهِ بقلب تفترشه المعاني، لقد وهبنا خطّة السير، وهُدينا

للسبيل، وعُرّفنا على الحياة وسؤلنا عن حمل أمانة غايتها، وقبلنا، الإنسان في لحظاته المعاشة قد يطغى عليه ضعفه، ويسألُ عن أسئلةٍ لا تستجلبُ إلّا السخط، ويغفلُ أنّه عبدٌ مُختبر، كل معنى داخلك سيختبر، قد يُردُّ إليك وقد يطول اختبارك فيه، وأنت لله!

هل جرّبتِ يومًا أن تُختبريَ بما تمنيتِ؟ بل لعلّك أحصيتِ أنكِ فقدتِ أكثر ممّا حزتِ، تفقدي قلبكِ، إذ أنه لن يسع الإمتنان قبل أن يتسع لمعاني أسبابه، هذه رسائل الحياة تخبرنا "عش لحظتك، وتزوّد من الينبوع قبل جفافه" .

قد لا تحوز بما في الأرض "ليس لأنكَ أنتَ، بل لأنها دنيا".

لنكمل المسير يا هيلين، لا أحب أن يرى الأمل منّا نظرة جافية، لنبتسم للسماء ونقول: «ربّي، ماضية برحلتي التي كتبتها عليّ، مادمت معي فأنا بخير، قلبي بخير، وأستطيع أن أبذل الخير».

الرسالة الخامسة والستون

عزيزتي هيلين، الأيام غريبة، كل ما حولي متغيّر يحمل احتمالات كثيرة، الأرض مضطربة، والوجهة كما تعلمين شاقّة، ألمس خير الله الذي اختاره، وأعرض قلبي بحلّة الرجاء؛ لأطلب قلبًا خافض الجناح، مصالحًا للقدر، حاملًا للرضى، فتلمسني غيمة وقدماي في الأرض.

عزيزتي هيلين، البارحة وأنا أرتب المنزل كنت ألقي سمعي لشيخ يتحدث عن ميثاق الأخوة في الله، وحاجتنا لصحبة تؤنس وحدتنا، وتمسك بأيدينا.

الإنسان يا هيلين، كائن رهيف، يحب دفء الأيدي التي تمتد إليه، تهدهد قلبه وتضمد جرحه، لكن من اعتاد على التخفي والترقيع في الظُّلَم كيف يأمن أن يلقي قلبه على أريكة البشر؟!

خطر ببالي للتو بيت المهذب بن الزبير، يقول فيه:

«وكيف آمنُ غيري عند نائبةٍ

يوماً إذا كنتُ من نفسي على حذرِ؟ »

إن لم يأمن الإنسان نفسه، فأين يجد الأمان الأعظم؟ جميعنا يعلم الجواب يا هيلين، فأجنحة الأمن والسكينة مبسوطة في السماء، هلّا فررنا إليها معًا؟!

الرسالة السادسة والستون

الحزن المعلن يا هيلين لا ينفك عن كونه حزنًا، والدموع الجارية التي تُذرف على مرأى الناس لا تخرج عن كونها دموعًا، وإنّي قد لا أفقه جلجلتها بقلب صاحبها لتطفح منه دون إرادة منه، إلا أنَّ هناك قيمة فريدة، ومعنى آسرًا للأحزان والدموع المستعلية على البوح أمام عتبة أي قلب، تلك التي لا ترضى أن تكشف وتُذرف إلا في مقام خفي عند الله. يستثقل صاحبها البوح فيطوي نفسه على قلق وعجل خوفًا أن يلمحه أحد، فيطلقها هناك، عند ربّه.

أقدّس معنى الخفاء والإستتار هذا، حين يغلق الباب على مهل ويمضي العبد ليسكب نفسه عند ربه، بلا تكلّف، بلا جدار، بلا واسطة، ينسكب بكل شعوره ويطرح قلبه دون خوف عليه من سوء الفهم، وجمود التنظير.

أقدّر يا هيلين معنى الأخوة والصحب، الذين يخففون ثقل الدنيا، ويمسحون دمعًا سخيًا، الأحزان ليست كلها للبوح، والجروح لم تُخلق لتُرى، والآمال تلك كأنها خُلقت مبتورة لتعود بجناحين، لم يذهب أحد لله وعاد كما كان يا هيلين، هل رأيت قلبًا مشوّهًا عنده أو مطعونًا في أمنه؟

ولو فتح للإنسان هذا السبيل كيف يفرّط فيه؟ بل كيف يَختار غيره؟ هذا تعريف الطرد أو الحرمان يا هيلين، أتدركين فظاعة ألا يكون للإنسان ملجأ سماوي آمن بعد كل المعارك التي يخوضها؟ بل أن يكون له فيمضي عنه ويفقد مفتاحه!

يضيق قلبي لمجرد التفكير يا هيلين، أين يذهب الإنسان بعيدًا كأنّه ما سمع المنادي، كأنه ما أبصر النّور، أيذهب ليشتري الظلمة، وخريطة التيه؟

الرسالة السابعة والستون

عزيزتي هيلين، هذهِ ليلة صردة، والرياحُ شديدة، يُقال: «إنَّ العاصفةَ على الأبوابِ بغيومها مطرٌ ثقيل».

أخشى هذهِ الأيام يا هيلين، إذ أنَّها تُذكّرني بغضبِ الله، وذلك اليوم المُهيب الذي تزلزَلَتْ فيهِ الأرض.

قد يطغى خوفُ الإنسانِ على رجاه يا هيلين، وإن الذي عرفَ تقصيره وعرفَ النّار كيف يوازن بين رجائه وخوفه؟

الخوف شعور ثقيل، مالم يملِكُ العبد إعانةً من اللهِ على تخفيفهِ يسرف حياته على حافة المخاوف...

يخاف الطير الصغير التحليق في عالم كهذا يا هيلين، يفتح جناحيه ثمَّ يضمهما مترددًا، حتى يقرر في لحظة ما أن يتجرأ؛ لأنها الطريقة الوحيدة التي ينجو فيها، ويالها من مواجهة شجاعة!

قد يقع ويخفق، لكن مع كل محاولة يزداد عناده، حتى تصبح السماء حريّته، ويحطّ على غصنٍ كسير وهو في مأمن أن أجنحته ستنقذه.

كتبتُ يومًا: «كلُّ طيرٍ يليق بجناحيه، وكل جناح خُلق ليخفق».

وتساءلت بعدها: «قد يملك الإنسان فؤادًا مثل أفئدة الطير، فهل يملك جناحان مثلها؟».

حتى صادفت قول البخيت: «السر في الطيرانِ لا في الريش والطائر».

فيعلّق الخفاجي بقوله: «ليست قوتك فيك، ولا في ما تملك، ولا في الاسباب، ولا في طبيعتك نفسها؛ بل في السر الإلهي الذي يجعلك تطير، والاسباب كلها انسجمت معًا من أجل ذلك السر، لا العكس».

لا نملك أجنحة الطير لكننا سنحظى بمعناها إن أردنا معنى الطيران.

استحضرت للتو درسًا كنت ألقيه على طالباتي أشرح لهنَّ فيه معنى الأمان مع الله، وعدم الخوف مما سواه، في اليوم التالي أتتني واحدةً منهُنَّ تقولُ لي: «لم يعد أحد يستطيع إخافتي من شيء أنا لا أخاف إلا من الله».

في كلامِها كانَ هناك شعور أمان مستعلٍ، فوق خوف الدنيا، لا أدري مدى ثبات الشعور في قلبٍ ضعيف كقلوبِنا، لكن أن يحظى الإنسان فيهِ ولو لوقت في حياتِه لهو نعيمٌ فريد!

لا شك أنَّ كُلَّ إنسان في قلبِه خوفٌ من شيءٍ ما، وادّعاء المثالية نوعٌ من التشوّه... لكن نعودُ لمركزيةِ العبد، ومأمن قلبه الذي يلجأ إليه بكُلِّ شعورهِ المُضطرِب، أنْ يجعلَ خوفَهُ لله، فكلَّما قربَ تقزَّمت الدُّنيا بعينِه بكُلِّ صورِها المضخّمة. ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

يقولُ تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ويقول أيضًا: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾.

فاللّهم خوفُكَ وحدُكَ وأمنكَ وحدُكَ!

الرسالة الثامنة والستون

السراج الذي ينطفئ في منتصف الطريق لا يعني أن الطريق فاسد يا هيلين، ولا يفسّر أنه إشارة للعودة، فالعقبات جزء من صحّة الطريق.

في عقولنا أمور كثيرة لم تعرّف، تراكمت بلا تفسير، وجُهلت حكمتها، متروكة للزمان وما بعده، وكثير من المشاعر معرّفة لكنّها لا تُفهم، غير أنّها شرسة بدافع الخوف.

الطرق التي لا تُسلك على بصيرة يا هيلين، هي الطرق المتهالكة، هذه هي الإشارة الوحيدة التي تستحق أن نلتفت إليها، أنمضي أم نعود؟ المشاعر والمنطق ليسا دليلًا في التيه، ولا يمكن الإعتماد عليهما، فكل شخص اعتمد على عقله وحده ضلَّ يا هيلين، وكل شخص تتبّع عاطفته شرخته، إنما البصيرة التي تسعهما، وتعطي كلًا منهما نورًا يهتدي به ومعنى يتزمل فيه.

الطريق السهل لا يطول يا هيلين، والقناديل لن تبقى منيرة دوماً، والأيام التي تبتسم بوجهك سرعان ما تكفهر، ليس تشاؤمًا، لكننا لن ندرك حقيقتها قبل أن نسلك طرق هجرانها، لأن من ذاق لذّة القرب واغترف من كراماته وتعرّف على سعته أنّى له أن يغريه الفناء والضيق؟ المسجون في الدنيا يا هيلين، لن يسمح لعقله أن يتقبّل هذه الحقيقة، هو يريد أن يثبت أن الدنيا دار القرار، فيبذل لها بقدر ما يحبُّ البقاء فيها، أعي أن الطريق شاق جدًا، وأن الإنسان

ضعيف، ولن يعزّيه المعنى على كل شيء، ولن يستطيع حمل هذه المعاني في كل موقف، لكنّه يحاول، والمحاولة غنيمة الساعي.

الرسالة التاسعة والستون

لا أملكُ يا هيلين ما أعزّي به نفسي في عالم كهذا سوى أن هناك معانيًا تستدعي من يطلبها، الإنسان له كيان خاص، وطرق يعرفها وينتمي إليها، فيها كبر وعليها غرس بذوره، إلا أن العالم له قوانين فاسدة، وطُرق تخوّفك أنها لن تفتح لكِ دون أن تفقدي معنى من معانيكِ، لقد رأيتُ كيف يُذبح المعنى قربانًا للإسم، وكيف يُبخّسُ للوصول لبريق المادّة، وكيف يتبجّح الإنسان ويخالف قيمه ليثبت نفسه.

من أوهم الناس يا هيلين، أن الإنسان لا يصلُ دون أن يسلك درب السوء أو شيئًا منه، ومن أقنعهم أن الطرق مالم تُسلك بالسوء لا تُطال؟ حتى وإن لمْ تُطل كلّها، لمَ يُساوم الإنسان على معناه وقيمه، ويدفن براعمه في التراب؟ وكيف يعيش الإنسان وينبض قلبه وهو يقتات على السوء؟

أعلم أن دروب المعنى شاقّة أكثر، لكن ما تهبك إيّاه بعد مشقّتها تمنحك إنتماءً فريدًا وخاصًا، لتكوني من أهل المعنى.

يحتاج الإنسان يا هيلين لتزكية دائمة، التزكية تحاوط الإنسان بسياجٍ آمن تمنع عنه كل يدٍ تريد العبث فيه، وكم يسحرني أن أرى إنسانًا يسمو فوق عبثِ العالم، لا يعنيه إلّا أن يرى قلبه مترفّعًا عن الدنيا وأمراضها، له نور يمشي به في

النّاس، يدركُ أن ما بذله في سبيل ربّه عائدٌ إليه بالخير، مهما خُفي عنه ومهما طال اختباره فيه، يكفيه من الدنيا عون ربّه وأنّه ناظرٌ إليه.

الرسالة السبعون

الإنسانُ قد يُحاصر يا هيلين، ويخيّل لنا أن المحاصر محتوم أمره، ولا يحتمل إلا مصيرًا واحدًا " الهلاك".

يخيّل للإنسان على ضعفه يا هيلين أنّه متهالك، وأن الدنيا أقسى من أن تسمح لقلبٍ رهيف أن يمرَّ من خلالها دون عطبه، وهذا في الواقع حقيقة لإنسان موكلٌ لنفسه، متروكٌ لأفكاره، تائه في دهاليز ظلمته.

الذي يعرف ربّه يا هيلين يسمع نداءه كأنه يناديه بخاصته: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾.

في عمق الخطر، والمخاوف، والقلق، والأحزان التي تتربص به يهرب إلى خالقه، من نفسه والدنيا، كلّما نظر الإنسان إلى نفسه عليه أن يذكّرها أن الله موجود، وأنَّ كل ظلمةٍ يبحث الإنسان عن إجابتها لن يجدها سوى بالرجوع إلى خالق النّور، الإنسان الشقيُّ يا هيلين كلّما أوقد الله له قنديلًا أطفأه، كلّما وهبه الله رسالة مزّقها، وهو هو نفسه باحث عن النّور والجواب لكن بطرقٍ خاوية، ونفسٍ شحيحة.

من يصمُّ أذنيه يا هيلين، ليس كمن يُلقي سمعه، ومن فقد اليقين ليس كمن يجاهد ليحمله.

هل تذكرين حين تأملنا قصّة موسى، لقد حوصر ومن معه بجنود جبّارين، إنَّ فَقدَ الأسباب يا هيلين، يُضعف اليقين لكن الذي يعرف ربّه يقول كما قال موسى: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

وكما قال الشاعر:

«النّور في قلبي وبين جوانحي

فعلامَ أخشى السيرَ في الظلام؟!».

الرسالة الواحدة والسبعون

لكل إنسان يا هيلين كون شاسع لا علم بمكنوناته سوى الله، ومحال أن تجدي إنسانًا خاليًا من أوجه الحزن وسلطة الهموم، لكن أسلوب التعامل معها يختلف من شخص لآخر، قد ترين شخصا ما تركته نازلة إلا وألمت به لكن روحه محلقة وقلبه متكئ على أريكة الطمأنينة. وقد ترين شخصًا مقابله لا هموم توازيه، فترينه مكتئبًا متسخطًا يطفئ بيده الأنوار ويلعن الظلمة.

الدنيا معلمة يا هيلين، والذي يبحث عن المعنى يجده، فالحزن والهم والاختبارات العصية التي تنزل بالإنسان ماهي إلا غنيمة، لو سخرها لآخرته، تخيلي حتى الشوكة يشاكها له أجر فيها!

حين يقارن الإنسان ما مر به مقارنة بغيره يدرك يا هيلين أنه في رحمة ولتحسس آثارها.

حين نعانق الأمل علانية يظنُّ النّاس أننا لا نعرف الظلمة، وهل يُعرف النّور دون التعرّف على الظلمة يا هيلين؟ وهل الذين اختاروا الفأل لم يعرفوا اليأس؟!

إن من عرف اليأس حقًا هو وحده الذي يدرك قيمة الفأل، ومن تاه في الظلمة هو الذي يمتنُّ بصدق لخيوط النّور.

لكن الإختيار ليس رفاهية، فالذي لم يرتب قلبه لمعنى الفأل ولم يفتح للنور نافذة القرب فأنّى له ذلك؟ لعلَّ الشقاء ليس اختيارًا يا هيلين، بل نتيجة طريقٍ

لم يُسلك، أو باب لم يُطرق... يبقى الكلام يا هيلين هو الكلام، أشعر أحيانًا أن قلبي أضعف من أن يحمل هذه المعاني الثقيلة حين اشتداد العاصفة، لم أتعرض بعد لابتلاء شديد؛ ليثبت أني قوية بما فيه الكفاية، ومدح الناس لا يثبّت جذوري، إنّما مادة لصنع الوهم وتصديقه.

الإنسان بصير بنفسه يا هيلين، حتى لو ألقى معاذيره لن يغيّر من المعادلة شيئًا، مكلّف بالتربية، ولا تربّى النّفس دون المحن وثقل الإختبار.

دعيني أقطف لكِ معنى من غزوة تبوك، حين طابت الثمار، واشتد الحر، وحبب للنفس أن تكون بين أهلها، كانت التجهز للخروج لقتال الروم، لأن الإيمان يتحقق ثبوته في ساعة العسرة، ولا تتميز المحبة بالأقوال، إذ أن صدق وجودها يحرك العبد لإرضاء خالقه بنفسه وماله وكل ما يملك، بل لابد من العسرة والبلاء والإختبار والتمحيص حتى يميز الخبيث من الطيب.

﴿ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾.

قيل أن طريق غزوة تبوك قرابة ثلاثة أشهر، حتى أن الصحابة كانوا يتقاسمون حبة التمر وفقدوا الماء، لكنّها اختبار وقع وانتهى، ماذا بقي؟ جزاء ورفعة وجنات...

في النهاية يقف الإنسان أمام الدنيا قائلًا: «ربي الله». ما دام الله مع عبده فلا يُخشى عليه يا هيلين، فلنجاهد لنكون معه في الرخاء ليعرفنا في الشدة.

الرسالة الثانية والسبعون

يصطدم الإنسان بحقائق الدنيا، حتى التي يعرفها ويتحذّر منها. واعجبي من الإنسان الذي تغلي الدموع في قلبه لتفيض من مقلتيه، وعقله يدرك ويعي، غير جاهل بالحقيقة ولا غريب عن الدنيا، لقد خضت في سؤالٍ كبير من بوح الدنيا التي أحتفظ بترجمتها خلال سفري، ما أيسر المنطق على العقل وما أخفه، ولكن؛ كيف للقلبِ أن يتصالح معه؟ أيمضي الإنسان عمره في اللحاق بمشاعره لإعادتها لوعاء الواقعية؟ ولو أعادها يُخترق قلبه من جهته الأخرى على مواجع وفواجع الغير، هيلين، قد يريد الإنسان التخلّي عن بعض شعوره حتّى لا يتوه؛ لأنّه حين يتوهُ تبدأ خسائره، والتيه لا يحصل إلا والإنسان مستوحش ولو لم يكن منفردًا.

وعلى أرض تساؤلي بزغ معنى عميق من وحي السماء ﴿ ... فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾، قلبٌ يعقل؟ هذا جواب فريدٌ مذهل يصله حديث رسولنا –صلى الله عليه وسلم–: ((ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهي القلب)). وحديث: ((استفت قلبك)).

يا لبديع المعنى ! لم يقل استفت عقلك، وذاك القلب لا يستفتى إلّا حين يغمس بأنوار الإيمان ويُهتدى حتى يعقل، ويكأن القلب الحاكم لا العقل، وكلّما صلحت تزكيته؛ صلح العقل ولبست الأفكار ثوب الحكمة وسكنت، والإنسان كلّما اشتغلَ في الدنيا؛ قصر طرفه عن المعاني السماوية وتاه عن ظلال المعاني

حتى تتلف المشاعر في قلبه، وكلّما عظّم الدنيا في قلبهِ؛ عظّمت أثرها داخله، وكلّما سما؛ سبقته المشاعر في سموّها، وكلّما هبط؛ استقرّت في لججٍ مظلمة.

لتهدهد المعاني قلوبنا وتسكن بمسحة الله وتتغذّى بوحي السماء؛ لنسير بقلبٍ مطمئن وعقلٍ رشيد.

الرسالة الثالثة والسبعون

في دنيا دنيّة كهذه أفِد منها الترحّل لا ينعّمُ إنسٌ إلّا ليكدّر، وهي حربُ الإنسان القائمة.

ففي حين توجّه الصورة للدماءِ المهدرة، يلفتني أنين قلب محبٍّ كُتب عليه إكمال الرحلة، وحيدًا تذوب نفسه فتقطرعلى فجعة الفراق، لَعمري إنَّ هذا الفراق بعد الوصلِ، والسلامة، والدفء وحسن العشرة، ينثر القلب شعاعًا!

"أبيت والشوق يطويني وينشرني

في راحتيهِ ولم أشك له وجعاً

أحباب قلبي وإن طال المدى فلَكَم

قد قطّع الشوق قلبي بعدكم قطعا"

أتتبّع أخبار الفاقدات، وأبكي على شرخٍ لا أكاد أرى قيعانه، وتؤرقني الليالي بسؤالٍ كبير عن حالهن تشرحه أمينة بقولها: «وإذا الليل خضمٌّ موحش تتلاقى فيه أمواج العذاب».

ثمَّ عتابًا: «قد تركت القلب يدمي مثقلًا تائهاً في الليل في عمق الضباب».

ثمَّ تخطو أول خطوة وحيدة في الطريق المتواعدين عليه فتصف مالا يخضع للتوصيف: «ودفنّا الشوق في أعماقنا ومضينا في رضاء واحتساب».

فيرنو طيفه باسمًا مثبّتًا: «لقاء الخلد في تلك الرحاب».

فتتساءل سؤال المشتاق: «هل ترانا نلتقي؟».

لا يملك الإنسان في عيشٍ مشوب بالنّغص ممزوج بالغصص إلّا أن يمضي متصبّرًا، تدعوه الآخرة فيجيب.

والمرأة يا هيلين لا تتميّز بعاطفتها مجرّدة، بل لا بدَّ من صقلها بالإيمان لتكون دليلًا في التّيه، ونورًا في الظلمات، ومتصبّرة في الأزمات، وحقيقة في الوهم، وقوّة في الضعف، ومعينة مؤازرة، ولنا في الأمهات الأول قصدٌ واحتذاء، والمضي لا يتعارض مع الحزن غير أنه وكما قال الشاعر:

«لئن وقف الدمع الذي كان جاريًا

لثمَّ أمور مالهنَّ وقوف».

يمضي الفاقدون للغاية المرجوّة حتى يقال لهم: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

الرسالة الرابعة والسبعون

على صفحة السماء التي ألبسها الليل ظلمته، وعلى صوت نغمِ الكون الآسر تفتحُ باب قلبها لتنطلق المهرة العنيدة ويخفق الطيرُ الذي تأذى جناحه من المساحات الضيّقة التي لا تنفرجُ إلّا باتصالها بالسماء.

ولو لم يكن هذا الجسر الممتد الذي يوصلُ بوحها للسماء لتقطّعت حبالُ نفسها وقُتلت معانيها، إنني يا هيلين، لا أجدُ ساعة يُغبط المرء فيها سوى سكونه في وحدته، وانشغاله مع خالقه، كأنَّ معنى الوحدة ليسَ بالصورة بل بالمعنى، كأن كل معانيه لها بوح خاص، وكل شعور له قصّة تُروى، فيصبح للهدوء ضجيج، وللبوح رهبة، وللنّفس وهي قائمة بين يدي الله مفتوحة لا مغاليق لها أجلُّ معاني القرب، وأسمى مراتب الغنى،

لا يُذهل الإنسان مالم ينظر بعين قلبه، ولا يتحرّك قلبه مالم يحييه، ولا يموت إلّا حين يُنزع أمله وينقطع رجاؤه، وحين تنسلُّ خيوط الضوء لتُشيع للظلام عودة النّور الذي يجعل القلب مرئيًا ينطوي الليل على عجالة وتعود المهرة بسكونها والطيّر بجناحه المضمّد بعد أن انكشفا لله.

الرسالة الخامسة والسبعون

في عبودية الله جناح للحريّة، وفي الإنفكاك عنها أسوء أنواع القيد والعذاب، لقد بحثت كثيرًا يا هيلين عن أثر تلك الروح الخفيفة التي تلمسك وتفرُّ لمحاولة اللحاق بها واكتشاف مسكنها، روحٌ لا تطال التراب وتخترق جدرَ الدنيا، تظهر في الليالي الهادئة وفي اللحظات التعبدية، وسحر معجزات التفكر التي تتلى على الأنفس، وتهمس في أذنكِ: «تعالي نداوي روحك».

تلك روح سماوية، تشرّبت من العبودية وانقادت بطوع منها، واستسلمت بين يدي الجبّار وبذلت نفسها لله، كلّما ازداد الإنسان عبودية لله وُهب حريّة فريدة، تقطع عليه كل خيطٍ يخنق روحه وتحرّره من أوهام نفسه وعوابث فكره وسلطة هواه.

لقد ذهلت حين علمت أن الأرواح لا تُقيد بالبلاءات يا هيلين، ولا بالإمتحانات المزلزلة، يبقى للروح مسكن تأوي إليه، وتحتمي فيه، بخلاف الذي تحرّر من عبودية الله ليُقيدَّ في سوق الدنيا فيصبح ذليلًا لا يزيد شيئًا عن الرقيق إلا في الصورة المزيّنة، وإلّا فكلاهما مستعبدَين.

يقول تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

هنا يا هيلين الصلة الوثيقة الثابتة، هنا النجاة وعلو المرتبة وأقصى المنى، جميعنا نبحث عن ذلك السر الذي يجعل الروح حرّة من الدنيا، جميعنا تتمحور أسئلتنا عن هذا المعنى، ولكننا لا نعمل للوصول إليه،

العباد المخلصين يا هيلين هم الذي نجوا، أخلصوا في حبّهم ففعلهم، فوهبت لهم الكرامات وتلك المعيّة الخاصة وذلك الإستعلاء عن سفاهة الأمور، ونثارة المواقف، ورديء الأقوال وقيد الدنيا والأهواء، يقول الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

يقول سيد قطب: «يمشي مشية سوية مطمئنة جادّة قاصدة، فيها وقارٌ وسكينة وجدٌّ وقوة، ويقول سلامًا لا عن ضعف ولكن عن ترفع؛ ولا عن عجز إنما عن استعلاء».

هل تدركين سمو هذه المرتبة يا هيلين؟ وهل ترين الروح المحلّقة التي سكنت هؤلاء العباد؟

الرسالة السادسة والسبعون

عزيزتي هيلين، لا أريدكِ أن تنتقي أخبارك السعيدة من أطوار الحياة وتخبئين الحزينة والأليمة، فإنني لا أحبُّ أن أبتسم في أفراحكِ وأغيب عن أتراحكِ، لكن رسالتك المثقلة بالخيبة وصلتني، لا أجدُ يا هيلين قيمة في كون الإنسان يعيش العلاقات على أساس المصالح دون الفضائل، بل لا أجدُ معنى في كون العلاقات تتكرر نسخة بنائها من أتربة الأرض،

النّاس متعبة من التبدّل يا هيلين، ومن التعرّف على وجوه جديدة، لقد استُسهل الإفلات، وبخّست السنون المليئة بالذكريات، وتخالفت القلوب وتنكّرت كأنّ الصداقة لم تظلّهما يومًا.

هل جربنا يا هيلين أن نعيش العلاقات لغاية أسمى من كونها بين شخصين؟

أن يكون هناك شيء أعلى وأقوى منهما، لا يلفتهما الفناء، فيبذلانِ للخلود ويملآن روحيهما بمعاني السموّ.

استحضرت قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– لصاحبه: ((ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟))

هل تدركين صلابة العلاقة يا هيلين؟ وما ظنّنا حقاً؟

الاثنين دون الله في دائرة مربكة، إذ أن كلاهما بشريان ضعيفان، لا يمكنهما تسيير المركب دون الله، كل خطأ ثورة وكل ذلة فجوة.

هُجرت الكثير من المعاني الجليلة يا هيلين، وبات للأشواك أراضٍ أوسع من الزهور، أقفرت القلوب بابتعادها عن ينابيع الوحي، واصفرّت العلاقات بجعلها تحت لهيب المشاكل.

منذ مدّة رأيت نفسًا رحبة يا هيلين، جرح قلبها نازف وثغرها باسم، تُضمد بيدها وتقول: «هداهم الله».

حين سألتها: «ما معنى أن يتأذى الإنسان دون أخذ حقه؟»

أخبرتني: «وهل كل أذية يستطيع الإنسان ردّها؟».

فسكتُّ هنيهة وقلت: «لله الأمر».

اقتربت مني وأخبرتني: «صدقيني لا شيء يضيع عند الله».

لفتتني تلك الرحابة وذلك السمو، فسألتها: «وهل تسامحين؟»

بكت وقالت: « ومن أنا حتى لا أسامح؟ من لا يحب أن يغفر الله له؟ وكيف أطلب من الله غفرانًا لجرمي وأرفض غفرانًا لعباده؟»

استذكرت قول سيد قطب: «فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجردًا من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى».

هيلين يا عزيزتي، أنا لست مع الضعف لكنّني من أنصار السمو والترفّع، لسنا وحدنا في هذا العالم يا هيلين، ولسنا متروكين للعبث، وكل خطوة لها سؤال وكل سؤال له جزاء..

تخفّفي يا هيلين من الدنيا، فكلّما حملنا منها تباطأت خطواتنا.

السابعة والسبعون

عزيزتي هيلين...

يعزُّ عليَّ في العيد أن أكتب لكِ رسالةً دون لقاء، لكنني أُصبِّر نفسي بأن ثمّة حبلَ وصلٍ على الأقل، يمدُّ الحزنُ يده من العمق ليطال قلبي، لكنني أحاول الابتعاد كي لا ينطفئ وهج الفرح الذي صنعتِه، أعلم أن هناك من يبتعد عن العالم محاولًا الهرب من نفسه، والحقُّ أن محاولة الإنسان الهرب لا تُجدي إلا إذا كانت إلى الله، أرى الحزينَ والسعيدَ يا هيلين، فحتى الحزنُ والفرحُ لهما مقاماتٌ ودركاتٌ، فإن كانت فرحتُنا لمعصية الله، وحزنُنا على فُتات الدنيا، فأنَّى لنا بلوغُ مقام التعظيم لشعائره؟

يعنيني يا هيلين، أن أكون في هذه الأيام بهيجةً سعيدةً؛ كلما انطفأ السراجُ أوقدتُه، وكلما ذبلت الزهرةُ سقيتُها، وكلما حاول قلبي الميلَ أمسكتُه، ليس سهلًا أن تكوني يقظةً طوال الوقت خوفًا من أن تري روحكِ خاويةً، لكن حسبُنا أننا نُؤجَر على مساعينا ولو لم تتمَّ لنا.

قصدتُ السماءَ لأن في قلبي سرًّا من أسراره آنَ له البوحُ. وكما تعلمين، أنا فصيحةٌ بالكتابة، متلعثمةٌ أمام جلال الله، ويا لحاجتي إليه؛ من طرفة العين إلى أكبر خطوة، أتساءل يا هيلين: «لو لم يكن هذا الباب مفتوحًا، أين كنا سنذهب بمشاعرنا؟ من يُزمِّلها، ومن يهبنا السكينةَ لنُبقيَها بين جوانحنا؟»

أرى الكثير من الصادقين معلَّقةً قلوبُهم في معارج السماء يا هيلين، يُراودونها كلَّ حين ليعرضوها على الله: «أراضٍ عنها أم ساخطٌ؟»

وأنا الأَمَةُ الخائفةُ، أمشي إليه وقلبي في يدي، خجلةً أتلفَّتُ، فهل لنا مكانٌ بينهم؟

آمل أن تكون أيامكِ هانئةً، خاليةً من شوائب الدهر وعلقمه، وأن تكوني من المقرَّبين المتنعِّمين.

وإن لم نلتقِ هنا، فلنسأل الله أن يُعوِّضنا بدخول جنته سويًّا.

فجر اليوم الثالث من العيد.

الرسالة الثامنة والسبعون

"هل بعد كل هذا الركض وصول؟"

قد يقضي الإنسان عمره وهو يسأل نفسه هذا السؤال يا هيلين، بعض الأحيان نريد الوصول لمجرد أنه وصول، لقد وصلنا كثيرا لما نريده وعلمنا أن الوصول بداية، كنا نلح لفتح باب نرغبه فرأينا كيف طبعت الدنيا عليه حقيقتها ومررنا كأن لم ندع الله، لكل منا رغبة وصول مختلف، ولكن تفكري قليلا، لو وصلنا ألن نطلب مزيدًا؟ هل ستتصالح الدنيا معنا؟

رحلتنا مكتوبة في اللوح يا هيلين، فلنعش هذا الطريق بمعانيه بدل أن نسرفه في التساؤل، إن كان مقدر علينا الوصول سنصل، مالم يقدر فعلى الأقل لم يمضِ العمر فارغًا.

«طوال عمركَ تحملُ الأماني وتسافرُ بها، تبحثُ عن معانٍ لتشيّد بها موطن قلبك، قلبكَ الذي أُطلق وحيداً في معركةٍ ناشبة وكُتبَ عليه ألا يستسلمْ، الأماكنُ أنست بك والأرضُ شهدت سرّك، تمشي على أملِ أن تكون خفيفاً لا تعبثُ بك إلا النسائم ولا تطالكَ أيدي المحن، وقعُ خطوتك غير صاخبة

وصوت قلبك مكتومٌ إلّا من داخلك، تُمسحُ خطواتك ويخلو المكان منك كزائرٍ راحلٍ لا مستوطن، تُفتقدُ حين تغيب، وتغيبُ حينَ يُكتبُ عليك المضي وتمضي لأنَ صوت الأملِ غير منقطع، رحلتكَ طويلة وسفركَ متعبٌ بقلبٍ خفّاق، يا أنيس الوجود، في قلبك كون انطوى فيه، نظرك متقلبٌ في السماء، تترقب إجابة، كانت سراً، تترتب فوضاك على ترنيمة الجمال، كتوم، يفضي شعوره بوعاء واحد، أبعد من أن يعبث به عابث، أشغلته المعاني، شوقه طال وحنينه فاض، يريد أن يصل بقلب خفّاق، المحاولة خطوة والجزاء مقرون بالسعي، الأبواب التي لم تكتب عليك، أعرف نصيبك الوحيد منها، الحزن بين أحناء ضلوعك ينفرج، لا تسقط نفسك حسرات، أكمل المسير، فالرحلة لم تنتهِ، يا أنيس الوجود، هناك من يحب أن يراك بخير».

أسنّة
الضيـاء